BOBST LIBRARY
3 1142 01216 2601

DATE DUE	DATE DUE
NEW YORK UNIVERSITY BOBST LIBRARY JAN - 6 1992 70 WASHINGTON SQ. S. NEW YORK, N.Y. 10012	
FEB 23 1993	

DATE DUE

6661 Ṭāhā Ḥusayn
" /Mir'āt al-ḍamīr al-ḥadīth
X3
3

طه حسين

مرآة الضمير الحديث

دار العلم للملايين
بيروت

JAN 3 1 1991

01216-2601

PJ
7864
.A35
.M5
1953
c.1

الطبعة الاولى نيسان (ابريل) ١٩٤٩
الطبعة الثانية كانون الثاني (يناير) ١٩٥٣

رسائل تنسب الى الجاحظ وأراها محمولة
عليه لأن تكلف التقليد فيها ظاهر .

أقبل عليّ صاحبي مبتهجاً باسم الثغر مشرق الوجه والنفس جميعاً يقول : لقد جئتك بطرفة ما اشك في انك ستنعم بها بالاً ، وسترضى عنها كل الرضى ، وستؤثرها على كثير من الطيبات في هذه الايام التي تقلُّ فيها الطيبات . قلت : وما ذاك ؟ قال كتاب مخطوط لم تعرفه المطبعة بعد . ظفرتُ به عند بعض الوارقين وفيه رسائل مختلفة للجاحظ وغير الجاحظ ، من كتاب القرن الثالث والرابع للهجرة . ولم اكد انظر فيه حتى بهرني وسحرني وكرهت ان اوثر نفسي بقراءته ، فجئت أظهرك عليه وأشركك في الاستمتاع به . ثم اخذ يقرأ عليّ منه رسالة للجاحظ كتبها الى محمد بن عبد الملك الزيات وسماها « رسالة الشكر والكفر » وابتدأها على هذا النحو :

رسالة الشكر والكفر

•

يسّرك الله للخير ويسر الخير على يديك ، وهداك الله الى الحق وجعلك الى الحق هادياً ، ودلك الله على الصواب وجعلك على الصواب دليلاً ، وعصمك الله من الشر الذي يُلقي باصحابه الى التهلكة ، وجنبك الباطل الذي يوفي بأهله على النار ، وحماك من الخطأ الذي يورط أهله في الحيرة ، ويشرف بهم على الزيغ ، وألهمك الله شكر النعمة ، فانه تمام المروءة وكمال الرجولة ، وسبيل الاستزادة من الخير ، وآية الارتفاع عن النقص ، والتنزه عما يجعل الرجل نذلاً فسلاً ، وخسيساً لئيماً . ولهذا اخبر الله عز وجل بقلة الشاكرين للنعمة الذاكرين للعرف ، فقال : « اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور » . والله عز وجل ،

يريد لعباده الخير ، ويأبى لهم الشر ، ويدعوهم الى أن يرتفعوا عن النقائص ، ويتنزهوا عن الصغائر ، فهو يذكرهم بنعمه عليهم ، وآلائه فيهم ، ويأمرهم ألا ينسوا ما يهدي اليهم من فضل ويسدي اليهم من معروف ، وينذرهم بالعقاب الشديد ، والعـــذاب الأليم ان كفروا النعمة او جحدوا الصنيعة . يعجل لهم العذاب في الدنيا ، ويؤجل لهم العذاب في الآخرة . ولهذا قال عز وجل في سبأ : « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور » ، وقال في أهل مكة كما روي عن ابن عباس : « وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مـــكان فكفرت بانعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » . وقد ادّب الله رسله المكرمين ، وانبياءه المعصومين بهذا الأدب فجعلهم حراصاً عـــلى الشكر أباة للكفر لا يمسهم جناح رحمة الا شكروا ، ولا تنزل بهم النائبات الا صبروا عليها ، وشكروا لله الهامهم الصبر وتمكينهم من الاحتمال . ولذلك قال عز وجل على لسان سليمان عليه السلام ، لما سخر له الريح والجن وعلمه منطق الطير والحيوان : « رب أوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت عليّ وعلى والديّ وان اعمل صالحاً ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين » .

ومن تمام الشكر لله وليّ كل نعمة ، والمبتدىء بكل احسان ، الشكر للمنعم من الناس والقيام بمكافأته بما أمكن من قول وفعل . لان الله تبارك وتعالى نظم الشكر له بالشكر

لذي النعمة من خلقه ، وابى ان يقبلها الا معاً لان احدهما دليل على الآخر وموصول به ، فمن ضيّع شكر ذي نعمة من الخلق فأمرَ الله ضيّع ، وبشهادته استخف . ولقد جاء بذلك الخبر عن الطاهر الصادق صلى الله عليه وسلم فقال : من لم يشكر للناس لم يشكر لله .. ولعمري ان ذلك لموجود في الفطرة قائم في العقل انّ من كفر نِعم الخلق كان لنِعم الله اكفر ، لان الخلق يعطي بعضهم بعضاً بالكلفة والمشقة وثقل العطية على القلوب ، والله يعطي بلا كلفة . ولهذه العلة جمع بين الشكر له والشكر لذوي النعم من خلقه .

وقد ادب رسول الله صلى الله عليه وسلم اصحابه بهذا الادب وفقههم في هذا النحو من العلم ، فضرب لهم فيه الامثال الرائعة ، وعلمهم فيه الحكمة البالغة . وقد روي عن ابي هريرة رضي الله عنه انه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان ثلاثة من بني اسرائيل ابرصَ واعمى واقرع بدا لله عز وجل ان يبتليهم فبعث اليهم ملكاً فاتى الابرصَ فقال : اي شيء احب اليك ؟ قال لونٌ حسن وجلد حسن ، قد قذرني الناس . قال فمسّه فذهب عنه فاعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً . فقال : اي المال احب اليك ؟ قال : الابل . فاعطي ناقة عُشَراء ، فقال يبارك لك فيها . واتى الاقرعَ فقال : اي شيء احب اليك ؟ فقال شَعر حسن ويذهب مني هذا ، قد قذرني الناس . قال فمسحه فذهب وأعطي شعراً حسنا . قال : فاي المال احب اليك ؟ قال : البقر . قال فاعطاه

بقرة حاملاً وقال يبارك لك فيها . وأتى الاعمى فقال أي شيء أحب اليك ؟ قال : يردّ الله اليّ بصري فابصر به الناس . قال فمسحه فردّ الله اليه بصره . قال : فاي المال أحب اليك ؟ قال : الغنم ، فاعطاه شاة والداً ، فانتج هذان وولد هذا فكان لهذا وادٍ من ابل ولهذا وادٍ من بقر ولهذا وادٍ من الغنم . ثم انه اتى الأبرص في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم الا بالله ثم بك ، أسألك بالذي اعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال، بعيراً أتبلّغ عليه في سفري ، فقال له ان الحقوق كثيرة . فقال له كأني أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيراً فاعطاك الله ؟ فقال : لقد ورثت لكابر عن كابر . فقال : ان كنت كاذباً فصيرك الله الى ما كنت . واتى الاقرعَ في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا . فرد عليه مثل ما رد عليه هذا . فقال : ان كنت كاذباً فصيرك الله الى ما كنت . واتى الاعمى في صورته فقال : رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم الا بالله ثم بك ، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلّغ بها في سفري . فقال : كنت أعمى فردّ الله بصري وفقيراً فقد أغناني ، فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء اخذته لله . فقال : أمسك مالك فانما ابتليتم ، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك » .

والشاكرون للنعمة بعد ذلك يختلفون ، فمنهم من يرى

شكر المنعم من الناس حقاً يجب ان يؤدى ، ولكنه يؤدى على الكره والمشقة وتتعرض النفس فيه لما لا تحب وتؤثر الا تتلقى النعمة من احد ، فلا تحتاج الى الشكر والاعتراف باليد المهداة . ولما أعان بعض المشركين ابا سفيان يوم أحد فأنجاه من حنظلة بن ابي عامر ، وقد كاد حنظلة يقتله ، قال أبو سفيان :

ولو شئت نجّتني كميتٌ طِمرّة
ولم احمـــل النعماء لابن شعوب

أراد انه خُيّر بين خزي الفرار ، وكان رئيس القوم ، وبين الصبر حتى انقذه ابن شعوب فاضطر الى ان يعرف له النعمة ويشكر له الصنيعة ، على ما في ذلك من المشقة والكلفة .

ومنهم من يرى في الشكر لذة ، وفي الكفر ألماً ، فهو ينأى بنفسه عن ألم الكفر وما يورث من نقص المروءة ، وهو يمعن في الشكر ، ويغالي بالنعمة التي أسديت اليه .

وقد قال العباس الصولي يشكر عمرو بن مسعدة :

سأشكر عمراً ما تراخت منيتي
ايادي لم تمنن وان هي جلّتِ
رأى خلتي من حيث يخفى مكانها
فكانت قذى عينيه حتى تولتِ
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه
ولا مُظهر الشكوى إذا النعل زلت

وقال بعض الحكماء : اذا استطاع الرجل الحر الا يدنيه احد بنعمة يسديها اليه او صنيعة يصطنعها عنده فليفعل ، فأن شكر النعمة شيء لا يطيقه الا اولو العزم . وقال ازدشير : الدَين على ضربين احدهما يمكن اداؤه في غير زيادة ولا نقص ، وهو دين المال الذي تقترضه من الذهب والفضة والعروض ، والثاني لا سبيل الى ادائه مهما تفعل ومهما تبذل ، وهو دين النعمة المسداة والصنيعة المهداة لان المعاني لا تقوّم بالثمن ولا تحدد بالكيل والوزن والعدد . قال ابو اسحق النظام : فاذا أديت الى دائنك ما اقرضك من ذهب او فضة او عرض ، فقد أديت أخفّ الدينين حملاً وايسرهما مؤونة ، وبقي في عنقك دين آخر لن تؤديه الا بالشكر المتصل ، والوفاء الدائم ، والثناء الذي لا ينقضي . والهزل في هذا الباب ، جُعلتُ فداك ، متصل بالجد ، فحياة الناس في جميع ابوابها والوانها قد وصل فيها الهزل بالجد ، والحق بالباطل ، والحزامة الصارمة بالدعابة الحلوة والفكاهة المسلية .

وكان لنا صديق يُعرف بأبي الرمل لم أر أجمل منه وجهاً ، ولا احسن منه منظراً ، ولا احلى منه حديثاً ، ولا ازكى منه ذكاء ، ولا أزكن منه زكانة ، ولا انفذ منه بصيرة ، ولا أدق منه فطنة ، ولا أصفى منه ذهناً ، وكان مع ذلك من اكفر الناس للنعمة ، وأجحدهم للصنيعة ، وأنساهم للمعروف ، وأعقهم للصديق ، وأشدهم انكاراً لحقّ الولي ، والتواءً بدين المحسن اليه . وقد سمعني ايام كنت

أملي عـــلى اصحابنا فصولاً من كتاب الحيوان في الجن والغول وفي السعلاة والعفاريت وما قالت العرب في ذلك من الجـــد والهزل ومن الصدق والكذب ومن الصحيح والمحال ، فـــكان يظهر الرضى بما يسمع والارتياح له . ثم افتقدناه اياماً ، فلما سألت عنه بعض اصحابنا أخبرت انه مريض قد ألزمته العلة داره ، فرأيت عيادته عليّ حقاً وزيارته من بعض ما تفرضه العشرة المتصلة والمخالطة الطويلة . فسعيت اليه مع اصحابنا ، فلم أكد أراه حتى انكرت من أمره كل شيء . فقد رأيت رجلاً غيرته العلة وأنهكه المرض ، حتى ذهبت نضرته ، وذوت زهرته ، واستحال جماله قبحاً قبيحاً ، وصار الى شر ما كان يكره له الصديق ويتمنى له العدو . فلما سألته عن اصل علته ، قال : ويحك ابا عثمان عفا الله عنك وما اراه يفعل ، فأنت اصل علتي ومصدر بلائي ، وانت الذي جرّ عليّ المحنة وصبّ علي النقمة وملأ قلب الصديق — وما اقلهم — عليّ اشفاقاً ، وأفعم قلب العدو — وما اكثرهم — بي شماتة ، فلولا ما حدثتنا به من اخبار الجان والعفاريت والغيلان والسعالى لما أصابني شر ، ولا نزل بي مكروه . قلت وما ذاك أبا الرمل ؟ قال لقد أطلت التفكير فيما سمعت منك ، واكثرت اعادته والحفظ له حتى شغلت به عن كل لون من ألوان العلم ، وعن كل ضرب من ضروب المعرفة ، وعن كل فن من فنون الحكمة . ودفعت ذات يوم الى البادية لا اعرف لذلك سبباً الا اني كنت أحدث

نفسي باني قد القى فيها من الاعراب من يحدثني بمثل حديثك عن الجن والغول . واني لفي بعض الطريق في الصحراء وقد ارتفع الضحى وامتلأت الارض حراً ونوراً وترقرق الآل على الكثبان من بعيد ... واذا امرأة تعرض لي لم أر احسن منها حسناً ولا ابرع منها جمالاً ، ولا املح منها قداً ، وقد اتخذت زي نساء البادية وتزينت بزينتهن ، فاسألها من هي فتنبئني ضاحكة بانها هي التي خرجت التمس الحديث عنها . قلت مرتاعاً : يا هذه اوضحي ما تقولين ، فاني لا افهم عنك منذ اليوم ! قالت : الم تخرج ملتمساً لانباء الغول متتبعاً لاحاديثها ؟ قلت : ومن انبأك بذلك ؟ قالت متضاحكة : ويحك ايها الرجل ! الم تعلم اننا نتصور فيما شاء الله من الصور ، وانا نخالط الناس فنسمع منهم ، ونتحدث اليهم ونشاركهم فيما يأتون وما يدعون من الامر ، نراهم ان شئنا ولا يروننا ، ونسمعهم ان احببنا ولا يسمعوننا ، ثم ننصرف عنهم الى ديارنا والارض كلها لنا دار ، فاني قد سمعت من صاحبك مثل ما سمعت من اخبارنا واحاديثنا ، فانكرت منه ما انكرت ، وعرفت منه ما عرفت ، ورأيتك بهذا الحديث معنياً وله حافظاً وعليه مقبلاً ، فعلمت انك قد خُلقت للجن والغول ، ولم تخلق للناس الذين تعيش معهم وتضطرب بينهم فازمتك مصبحاً وممسياً ، ورافقتك غادياً ورائحاً ، وراقبتك يقظان ونائماً ، حتى اذا غدوت اليوم لما غدوت له رأيت ان قد بلغ الكتاب اجله

وانتهى امرك الى مدته وآن ان تبلغ ما انت ميسّر له من عشرة الجن والغول ، فتراءيت لك ثم اقبلت عليك . ثم انا لن افارقك منذ اليوم فستكون لي رفيقاً ، سواء ارضيت عن ذلك ام سخطت عليه . وقد وليت عنها مدبراً وعدت الى داري مسرعاً ، ولكني لم اخط خطوة الا رأيتها تخطو معي مثلها وحديثها اليّ متصل لا ينقطع ، واذا هي تلزمني لزوم الظل ، واذا هي تبلغ معي هذه الدار ، وتقوم بيني وبين اهلي وولدي ، لا اقول لهم شيئاً الا ردّته علي ولا يقولون لي شيئاً الا ردت عليّ غيره ، ثم هي تتشكل لي في اشكال مختلفة وتتلوّن لي في الوان متباينة . فاذا احست مني انكاراً لبعض ما ارى من امرها قالت بصوت كانه صوت الشياطين :

فما تدوم على حال تكون بها
كما تلوّنُ في اثوابها الغولُ

قال ابو الرمل : فانت كما ترى اصل علتي ، والحق عليك ان تجد لي منها مخرجاً وتلتمس لي منها شفاء . ولم يكد يبلغ هذا الموضع من حديثه حتى ارتعنا جميعاً ، واخذنا خوف اي خوف ، فقد سمعنا صوتاً يأتي من بعض نواحي الحجرة نسمعه ولا نرى مصدره ، وهو يقول هيهات هيهات ابا الرمل لن يجد لك ابو عثمان من ضيقك مخرجا ولن ينتهي بك من علتك الى شفاء الا ان تتغير نفسك فتصبح شاكرة للنعمة ، عارفة للصنيعة ، وهي قد فطرت على الكفر والجحود . وقد

خرجنا من عند ابي الرمل وليس منا الا من يتلو : « قل اعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس » .

قلت لصاحبي : اجادّ انت في اضافة هذا الكلام الى الجاحظ ؟ قال وهو يغرق في الضحك : ما اكثر ما اضاف الجاحظ الى الناس ما لم يقولوا فما يمنعني ان اضيف اليه ما لم يقل . . !

رسالة الأمر والنهي

•

وفقك الله الى الخير والبر ، وعصمك من الشر والاثم ، وهداك الى الرشد المفضي بأهله الى الجنة ، ووقاك من الغي الموفي باهله على النار ، وحبّب اليك الحق الذي يملأ العقل نوراً وحكمة ، وكرّه اليك الباطل الذي يملأ القلب غروراً وجهالة ، وحملك على الجادة التي تنتهي بك في كل ما تعمل الى خير ما تحب لأمير المؤمنين من نُصحٍ ولرعيته من العافية ، ولنفسك من النجح وارتفاع الذكر وبعد الصوت وقهر العدو والاستعلاء على الخصم .

فقد قال الله عز وجل « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم اجمعين » .

وصرف الله عنك سوء الظن فانه مفسد لصدق الاخاء

مكدر لسريرة الصديق ، منغص لذات النفس . وجعل الله موقع النصح الذي يقدمه اليك الصديق الحميم والمشير الامين حلواً في سمعك ، عذباً في قلبك ، حبيباً الى نفسك . فقد كان يقال لا يحسن بالوزير الناصح للملك والمشير الامين عند السلطان الا يقبل نصح اوليائه ان رفعوه اليه ، فانه ان اساء الظن بالناس اساء الناس الظن به وكان خليقاً ان يسوء به ظن السلطان .

وحدثني بعض اصحابنا من علماء الهند ان بيدبا الفيلسوف كان يقول لدبشليم الملك : ان علمت ان في بعض وزرائك استبداداً في الرأي واستكباراً على الاشارة وازوراراً عن نصح الناصحين فاعلم انه جدير الا يصدقك الرأي ولا يخلص لك في النصح ، فليس بناصح لك من لا ينتصح ، وليس بمخلص لك من يشك في اخلاص الناس له . ولا ينبغي ان تأمن من لا يأتمن الناس ، ولا ان تطمئن لمن لا يطمئن الى احد .

وكتب ارسطاطاليس صاحب المنطق الى اسكندر : لا خير في الصديق اذا لم يؤثرك على نفسه ، ولم يُظهرك على دخيلة قلبه ، ولم ينصح لك في الغيب والشهادة . ولا خير فيه ان اصفاك بكل ذلك ولم يكن له صديق يقدّم له من ذات نفسه مثل ما يقدّم اليك . فان الرجل الذي يصادق مَن فوقه من ذوي الدرجات واصحاب المكانة ولا يصادق من دونه من الاولياء والسوقة خليق ان يكون أثِراً يحب نفسه ولا يحب

غيره ، ويبتغي بما يقدم اليك من النصح والمشورة ان يستأثر بك من دون الاولياء ، وان يختص نفسه بما يجد عندك من معروف او سلطان .

جُعلت فداك ، انما اكتب اليك ما اكتب من هذه الحكمة واسوق اليك ما اسوق من هذه الاحاديث . لأمر عرفته اليوم في الديوان ، فضاقت به نفسي ، وحزن له قلبي ، واشفقتُ عليك من عاقبته ، وكرهت لك مغبته ، وخشيت ان يتجاوز الديوان الى مجالس الاشراف في قصورهم ، والقواد في جنودهم ، والعامة في انديتهم ومجالسهم ، فيتحدث الناس عنك بما لم يتحدثوا بمثله عن الوزراء من قبلك ، وتقع في نفوسهم لك مهابة تقوم على الخوف والبغض ، ولا تقوم على المحبة والتجلة ، وشرّ ما يتعرض له اصحاب السلطان ان يهابهم الناس خوفاً ورهباً ، وخير ما يتاح لاصحاب السلطان ان يهابهم الناس حباً واكباراً ، وطمعاً فيما عندهم من الخير ، ورغبة فيما يجدون عندهم من البر والمعروف .

وقد كان كاتبك الحسن بن وهب يتحدث الى بعض اصفيائه وانا اسمع على غير علم منه بمكاني بان شعراً قد رُفع اليك فيه عيب لك ونقد لبعض عملك ، فغضبت له وضقت به وأمرت بالبحث عن قائله لتذيقه غضبك وتصب عليه عذابك ، وتعلمه عاقبة طيشه ومغبة استخفافه بالسلطان واجترائه على الحكام . ثم لم يكفك ذلك ولم يقنعك ، فامرت أعوانك من الكتاب والعمال ان يتقدموا الى اصحاب الشعر المنظوم

والكلام المنثور والى ذوي الاقلام المشرعة والالسنة المنطلقة ألا يذكروك فيم ينظمون من شعر او يكتبون من نثر او يديرون من حديث الا بالخير ، فان جنح منهم عن ذلك جانح او انحرف منهم عن ذلك منحرف فان السجن له مهيأ والعقاب له مرصد ، والعذاب عليه محتوم . وهو خليق ان مسه الاذى ونزلت به العقوبة الا يذوق للعافية طعما ، ولا يجد للحرية روحا ، ولا ينعم بلقاء الاهل ومودة الصديق ونعمة الدعة ، حتى يخرج من هذه الحياة ملوماً مدحوراً .

جُعلت فداك ، فاني لم اكد اسمع هذا الحديث يُسرّه الحسن بن وهب الى بعض خاصته وذوي مودته فيبدم له حين يتحدث ، ويبسمون له حين يستمعون اليه ، وتظهر في وجهه ووجوههم آية الطاعة الساخرة والرهبة المستخفة ، حتى جزعت وفزعت ، وحتى ارتعت والتعت ، وحتى اشفقت عليه من امر تُعرف موارده وتوشك الا تُعرف مصادره ، وتتبين اوله وتوشك الا تتبين آخره .

وهو بعد ذلك لم يتح لاحد من الناس منذ كانت هذه الامة ، وقامت هذه الدولة ، واستقر سلطان المسلمين في يثرب ايام الخلفاء الراشدين ، وفي دمشق ايام بني أمية ، وفي بغداد أيام بني العباس .

وما علمت اصلحك الله ان خليفة من الخلفاء او ملكاً من الملوك او وزيراً من الوزراء تقدم الى الناس بمثل ما تتقدم به اليهم ، وما علمت ان الناس استمعوا لمثل ذلك

او اذعنوا له او اطاعوه ، وقد همّ زياد ببعض ذلك فاوعد وغلا في الوعيد ، وانذر واسرف في النذير ، وطلب الى الناس ان يكفوا عنه ايديهم والسنتهم ليكفّ عنهم يده ولسانه ، فصانعه من صانعه ، ونصح له من نصح ، وعارضه ابو بلال مرداس . فقال له : انك تحدثنا بغير ما يحدثنا به الله عزّ وجل ، تزعم انك ستأخذ البريء بذنب المسيء والله عز وجل يقول : ولا تزر وازرة وزر اخرى .

قال له ابو بلال ذلك في جماعة المسلمين والمسجد بهم ممتلىء ، وزياد على منبره لم يفارقه ، وعليه شارة الملك ، ومن حوله قوة السلطان . ثم انصرف ابو بلال مرداس لم ينله من زياد كيد ولم يمسه منه أذى . وقد كان لزياد ما علمت من القوة والبأس ، ومن العنف والبطش ، ومن اليد التي لم تكن تعرف القِصَر ، والسهام التي لم تكن تعرف الخطأ وانما تسدد فتصيب ، وترمي فتصمي .

جُعلت فداك ، وما زال الناس يعدّون على عبد الملك قوله حين جد الجد ، وعظم الخطب ، وانتشر الفساد في الاطراف وتفرق الناس شيعاً واصبح في كل جزيرة امير ومنبر ، « من قال لنا اتقوا الله ضربنا عنقه » ، يرون انه تحدث بما لم يكن له ان يتحدث به ، وتكثّر بما لم يكن يستطيع ان يبلغ من الامر ، وما اكثر ما قال الناس له اتقِ الله ، وما اقل ما ضرب من الاعناق . وما اعرف انه عاقب على مشورة او عذب في معارضة ، وانما عاقب من شق عصا

المسلمين ، وخلع يداً من طاعة ، وفرق كلمة الامة .

جعلت فداك ، ولو ان هذا الامر صدر عن امير المؤمنين ايده الله لما رضينا ذلك له ، ولا قبلنا ذلك منه ، وهو خليفة رسول الله وابن عمه والقائم على سلطان المسلمين ، اعطوه بيعته عن رضى ، ودانوا له بالطاعة عن ثقة ، فكيف بك وقد وليت الوزارة اليوم وقد يعزلك عنها امير المؤمنين غدا . وانت لا تُمضي ما تمضي من الامر الا عن اذنه ورضاه ، فكيف بك اذا نلت احداً بأذى وكفّه عنه امير المؤمنين ، وكيف بك اذا القيت احداً في سجن وفتح بابه له امير المؤمنين ، وكيف بك اذا تقدمت في تعذيب هذا الشاعر او هذا الكاتب ثم سعى السعاة الى امير المؤمنين بانك تتهم بالظن ، وتأخذ بالريبة ، وتعاقب في غير تثبت ، وعفوُ امير المؤمنين اوسع من سخطك ، ورحمة امير المؤمنين ، اوسع من نقمتك ، فماذا يقول الناس ان سخطت انت ورضي هو ، وعاقبت انت وعفا هو ؟ وعفوُ امير المؤمنين لا يصدر عنه الا مصاحباً بالبر والنعمة ، فماذا يقول الناس اذا عاقبت انت وعفا امير المؤمنين ، ثم اتبع عفوه بالنعمة والجائزة ، وبالنائل والنافلة . الست خليقاً إذن ان تطلق السنة الناس فيك بما لا تحب ، وان تعرّض سلطانك للضعف ، وعزك للسخرية .

جعلت فداك ، ان خير الوزراء من عرف لنفسه قدرها ولم يجاوز بسلطانه حده ، ولم يرفع نفسه الى اعلى من الموضع الذي وضعه فيه امير المؤمنين ، ولم يعرض نفسه بذلك

لانكار المنكرِ واحتجاج المحتجّ . واحذر جُعلت فداك ان يرقى الشك فيك الى قلب الخليفة فيظن بك تجاوز الحد ، ويتهمك بانك تعطي نفسك من السلطان ما لم يعطك ، وتخوّلها من القوة ما لم يخولك . وامير المؤمنين لم يتخذ الوزراء ليبسطوا على الناس أيـــديهم بالاذى وليصبوا عليهم النقمة صباً ، وانما اتخذ الوزراء ليشيعوا في الناس رحمته ونعمته وينشروا فيهم بره وعدله ، ويرفعوا فيهم ذكره بالخير ، ويطلقوا ألسنتهم بالثناء عليه ، ويملأوا قلوبهم بالحب له . والحب لا ينال بالقسوة ، والنصح لا يكتسب بالظلم ، وليست اشاعة النقمة وسيلة الى اكتساب الود ولا الى اصطفاء النفوس . فانظر اصلحك الله في امرك وانصح لنفسك ولأمير المؤمنين . وانظر بعد ذلك فيما بينك وبين الله من حساب تستطيع ان تجعله يسيراً ان شئت ، وتستطيع ان تجعله عسيراً إن احببت .

واعلم جُعلت فداك ان الزمان لا يثبت ، وانما هو منطلق دائماً ، وان الايام لا تستقر ، وانما هو نهار يتبعة نهار ، والاحداث في اثناء ذلك تحدث ، والخطوب في اثناء ذلك تلمّ ، والنوائب في اثناء ذلك تنوب ، والوزراء يولون ويعزلون ، والحكام ينصبون ويصرفون ، والدنيا تقبل وتدبر ، والحوادث تحلو وتمر ، والرجل اللبيب من اعتبر بهذا كله فلم يسرف على نفسه ، ولم يسرف على الناس ، ولم يقدّم بين يديه من العمل ما يسوءه في الدنيا ويخزيه في الآخرة . وقد أطلقتَ لسانك ، جعلت فداك ، في ابن ابي دؤاد وتقدمت الى عمالك في ان يقولوا

فيه مثل ما تقول ، وفي ان يبثوا حوله الارصاد وينثروا عليه وعلى اصحابه العيون ، ويرفعوا اليك من أمره ما ظهر وما خفي ، وينقلوا اليك من حديثه وحديث أصحابه ما قالوا وما لم يقولوا . فكيف بك اذا دارت الدائرة ، وألمت الملمة ، ودعي ابن ابي دؤاد الى الوزارة ، وصُرفت أنت عنها ، وأمر فيك ابن ابي دؤاد غداً بمثل ما تأمر فيه أنت اليوم .

جعلت فداك ، إن كرام الناس ، وانت منهم ، يرفعون انفسهم عن الصغائر ، وينزهونها عن آثام القول والعمل ، ويكبرونها عن تتبع الهفوات والتماس العثرات ، ويصمون آذانهم عن عيب العائبين ولوم اللائمين . ولعلهم احياناً ان يسمعوا للوم والعيب اكثر مما يسمعون للحمد والثناء ، يجدون في اللوم والعيب ما يصلحون به أنفسهم ، وينقون به ضمائرهم ، ويقوّمون به اعمالهم ، ويجدون في الحمد والثناء تملقاً يدفع الى الغرور ويغري بالصلف ، ويخدع عما قد يكون في النفس من خصال السوء .

واني لأحب لك ان تلام فتعفو ، وان تعاب فتصفح اكثر مما احب لك ان تُمدح فتعطي ، وان يثنى عليك فتكافيء على حسن الثناء .

وانت بعد ذلك لا تستطيع ان تعقل الالسنة المطلقة ، ولا ان تحطم الاقلام المشرعة ، ولا ان تمنع القلوب من الشعور والعقول من التفكير ، فدع الناس وما يشاؤون ان يقولوا فيك من الخير والشر ، ومن الحمد والذم ، وانتفع بذلك

كله في اصلاح نفسك وفي تجنب ما يشينك الى ما يزينك.

واذكر قول الشاعر القديم :

اذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه الى ما تستطيعُ

وكان بعض حكماء الروم يقول : اذا لم يكن ما تريد فأرِد ما يكون .

جعلت فداك ، ان الله لم يعصم احداً من الخطأ ، ولم ينزه احداً من الزلل ، وإنما وهب الناس عقلاً يحسن مرة ، ويسيء أخرى ، ويخطىء حيناً ويصيب حيناً ، وجعل من الناس على الناس رقباء يدلونهم على مواضع الخطأ ومواطن الزلل .

ولست بخيرٍ من عمر وقد قال عمر للناس : من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقوّمه ! فقال له قائلهم : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا !

وقد لام اللائمون عثمان ، فقبل اللوم ، واعتذر من الخطأ ، وتاب الى الله من السيئات . فما انت بخير من عمر ، وما أنت بخير من عثمان ، وما انت بخير من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقد رضي ان ينصف من نفسه .

فأنصف من نفسك إذن ، ولا تكلفها ما لا تطيق ، وضعها حيث وضعها الله ، وحيث وضعها امير المؤمنين ، واذكر انك لم تكن امس شيئاً فأصبحت اليوم بفضل امير المؤمنين شيئاً مذكوراً .

فاشكر لله نعمته عليك ولأمير المؤمنين يده عندك . وخير شكرٍ لله ان تذيع في الناس العدل وتشيع فيهم الخير ،

وخير شكر لامير المؤمنين ان تشعر الناس بحبه لهم ورفقه بهم ، وانهم عنده سواء .

وأنا اعلم ، جعلت فداك ، ان الحق مرّ وان النصح ثقيل ، وان الصدق بغيض إلى اصحاب السلطان . ولكنني اؤثرك على نفسي واصفيك خالص ودي ، وقد علمت ما علمت فكتبت ما كتبت ، وانا مرسل اليك هذا الكتاب فمرتحل الى البصرة لأقيم فيها بعيداً عن بغداد . فلأن اكون مغموراً في البصرة أحب إليّ من ان اكون مشهوراً معروفاً في بغداد .

ومضى الجاحظ في رسالته تلك الى محمد بن عبد الملك الزيات على ما تعوّد ان يمضي فيه من الاستطراد والتنقل بين ألوان الحديث ، ولكن وقت القارىء اضيق من أن أتمّ له هذه الرسالة .

الوشاية والوشاة

•

هداك الله الى الرشد ، وجعلك الى الرشد هادياً وللحق داعياً . وحماك الله من الغي ، وجعلك من الغي حامياً وعن الاثم ناهياً . ودلك الله على الخير وجعلك على الخير دليلاً وبالبر كفيلا ، وعصمك الله من الشر وجعلك من الشر عاصماً وللفتنة حاسما . ووقاك الله سعي الساعين بالاذى ، ودعاء الداعين الى القطيعة ، وإرجاف المرجفين بالكذب ، واسراف المسرفين في الكيد ، ومشي الماشين بالنميمة .

فقد كان يقال ان صاحب القلب الذكي ، والحكم الراجح ، والبصيرة النافذة ، خليق ان يحذر الساعين اليه بالناس ، وان يقدّر انهم إن يسعوا اليه اليوم فقد يسعون به غدا ، وإن يكيدوا لخصمه عنده والايام مقبلة عليه ، فقد يكيدون له

عند خصمه والايام مدبرة عنه . وكان يقال ان الدهر قلّب وان الايام لا تؤمن ، وان الزمان كلِفٌ بالغدر ، موكل بالمساءة ، يبسم ليعبس ، ويعبس ليبسم ! وكان يقال ان الرجل الحذر خليق ألا يؤتى من مأمنه ، وسبيله الى ذلك الا يطمئن الى الايام ولا يستريح الى الدهر ، وأن يستقبل النعماء مقدراً أنها قد تزول عنه ، وان يستقبل البأساء مقدراً انها الغمرات ثم ينجلين !

واذا كان الحزم للرجل اللبيب الا يأمن الايام ولا يطمئن الى الدهر ، فأحزمُ من ذلك الا يأمن الناس ولا يستريح اليهم .. فهم يسعون الى الرجل ذي السلطان والبأس رغباً اليه او رهباً منه ، يلتمسون عنده الخير ، ويبتغون اليه الوسيلة ، ويسلكون اليه السبل حراصاً على ان يخلو لهم وجهه ، ويصفو لهم وده ، ويخلص لهم ضميره ، فتغمرهم نعمته ، وتعدوهم نقمته ؛ وهم يعلمون ان صاحب السلطان والبأس لا بد له من ان ينعم ، فهم يحرصون على ان يستأثروا بانعامه ، ولا بد له من ان ينتقم ، فهم يجهدون في ان يصرفوا نقمته عن انفسهم . وهم في كل ذلك يطلبون الى صاحب السلطان والبأس اكثر مما يطلبون الى انفسهم ، ويأخذون منه أكثر مما يعطونه : يطلبون اليه ان يخصهم بصفو نفسه وصدق وده وشامل معروفه ، ولا يعطونه من انفسهم الا الكدر والرنق ، ولا يمنحونه من ودهم الا التكلف والرياء ، ولا يهدون اليه من معروفهم الا تربص الدوائر به وانتهاز

الفرص فيه ، وانتظار اليوم الذي يتحولون فيه عنه الى من ينافسه ويناوئه . فهم يعرضون قلوبهم ونفوسهم وعقولهم وضمائرهم للبيع ، ويقبلون ما يعرض عليهم لها من ثمن . فاي الناس ارضاهم مالوا اليه ، وأي الناس قصّر في ارضائهم انحرفوا عنه وتألبوا عليه !

ثم هم بعد ذلك لا يحفظون وداً ، ولا يرعون حرمة ، ولا يذكرون جميلاً . وانما يسرع النسيان الى قلوبهم فيمحو منها كل ذكرى ، ويلقي بينها وبين ما قدم اليهم من الخير والمعروف حجباً واستاراً . ثم هم بعد ذلك لا يكتفون بالنسيان ، ولا يقنعون بنكران الجميل وكفر النعمة ، وانما يضيفون شراً الى شر ، ونكراً الى نكر ، وجحوداً الى جحود . قد أقاموا حياتهم على الكذب ، واجروا سيرتهم على الرياء ، وطووا ضمائرهم على النفاق . فهم لا يستطيعون ان يعيشوا بانفسهم ، وانما يستمدون حياتهم من المنعمين عليهم ، المحسنين اليهم ، ومن المغترّين بهم ، والمنخدعين لهم.. فهم يتملقون من أتيح له السلطان ، يسعون اليه من كل سبيل ، ويسلكون اليه كل طريق ، يرقون اليه على أعناق سادتهم الذين أحسنوا اليهم ، وبروا بهم ، وغمروهم بالمعروف ؛ لا يتحرجون من غدر ولا يتأثمون من نكر ؛ قد استحبوا المنافع العاجلة على المنافع الآجلة ؛ وآثروا المكر على الاخلاص ، والغدر على الوفاء . فخليق بصاحب السلطان ان يعرفهم حق معرفتهم ، وان يضعهم حيث وضعوا أنفسهم ،

وان يخشى ان يمكروا به كما مكروا بمن كان من قبله ، وان يتخذوه وسيلة الى التماس المنافع عند غيره كما اتخذوا من كان قبله وسيلة الى التماس المنافع عنده !

وهذا الصنف من الناس – أيّدك الله – رذل الطبع ، موبوء القلب ، مدخول الضمير ، لا يحسب لشيء حساباً ، ولا يرجو لأحد وقاراً . لا يفرق بين خير وشر ، ولا يميز عرفاً من نكر ، وإنما الخير ما انتهى به الى ما يريد ، والشر ما حال بينه وبين ما يريد . وإنما العرف ما أداه إلى غايته ، والنكر ما باعد بينه وبين غايته . فليس للفضيلة عنده وزن ، وليس للخلق الكريم في نفسه قدر . وهؤلاء الناس ينتهي بهم مراسهم للكيد وامعانهم في المكر الى ان يستعذبوا الاثم ويستحبوه ، والى ان يكذبوا حباً في الكذب ، ويشوا إيثاراً للوشاية . يجدون في ذلك رضى لنفوسهم التي لا ترضى الا بالشر ، ولا تنعم الا بالوقيعة ، ولا تستريح الا الى الافساد بين الناس .

وقد أدّب الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم فأحسن تأديبه ، ونهاه ونهى المسلمين معه عن طاعة كل حلاف مهين ، همّاز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عُتُلّ بعد ذلك زنيم ، فما أجدر المسلم الذي ينظر لأمر دينه كأنه يموت غداً ، ولأمر دنياه كأنه يعيش أبداً ، ان يتأدب بهذا الأدب الذي أدّب الله به الانبياء والصدّيقين ، والابرار الصالحين .

والوشاية – جنبك الله شرها ، وعصمك من نكرها ، ورد

عنك أذاها ، وصرف الى عدوك شباها – تكون على ضروب مختلفة وألوان مفترقة . فمنها ما امتُحِن به نابغة بني ذبيان في قصر النعمان ، وذلك حيث يقول :

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً
وليس وراء الله للمرء مذهبُ
لئن كنتَ قد بُلِّغتَ عني وشاية
لمبلغك الواشي أغشّ واكذب

وحيث يقول :

أتاني ابيتَ اللعنَ انك لمتني
وتلك التي تصطكّ منها المسامعُ
فبتّ كأني ساورتني ضئيلة
من الرُّقط في انيابها السم ناقع
فانك كالليل الذي هو مدركي
وإن خلت ان المنتأى عنك واسع !

ومنها وشاية بين الصديق والصديق ، وبين الاليف والاليف تحوّل الصفا جفاء ، والمودة عداء ... ومنها الوشاية بين الحبيبين تلك التي قال فيها الشعراء فأجادوا وأحسنوا .

والقول في شكوى المحبين من وشاية الوشاة وعذل العذال ورقابة الرقباء ، خليق ان يطول وتلتوي مذاهبه . ولكني – أيدك الله – لم اكتب اليك في ذلك ، ولم أرد ان أظهرك عليه . وإنما هو شيء عرض أثناء الحديث فألممت به إلماماً ... وأعود الى ما بدأت به من تحذيرك سعي الوشاة

اليك وسعي الوشاة بك ، فاذكرك – وما أنت في حاجة الى التذكرة – بما ترجم ابن المقفع في كليلة ودمنة ، وبما روى الرواة عن ملوك العرب والعجم ، وبما قالت الحكماء في ذلك من بارع الموعظة وروائع الحكم . وانت – حفظك الله – حين تنظر في بعض ذلك خليق أن تستقبل أمرك بالحزم ، وان تقيم سيرتك على الحذر ، وان تسوس اصحابك بالتحفظ ، وألا تمضي من امرك ما تمضي ، ولا تدع منه ما تدع ، حتى تروّي فتطيل الروية ، وتستبصر فتحسن الاستبصار .

ومن حقك على نفسك ، ومن حق الناس عليك ، ان تتهم الذين يسعون اليك ، ويطيفون بك . فان اتهام فريق من الناس والتثبت قبل الاستجابة الى ما يدعونك اليه ، خير لك وأسلم عاقبة من ظلم البريء والاساءة الى المحسن ، والاحسان الى المسيء والتجاوز عن المجرم . وقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه رضي الله عنهم ان يتثبتوا إن جاءهم فاسق بنبأ ، مخافة ان يصيبوا قوماً بجهالة فيصبحوا على ما فعلوا نادمين ! والله عز وجل قد وضع في اعناق العلماء ان ينصحوا للحكام فيخلصوا في النصيحة ، وان يعظوهم فيحسنوا الموعظة ، وان يذكروهم بآيات الله كلما تعرضوا لنسيانها او همّوا ان يتحولوا عنها . ومن اجل هذا كتبت اليك ناصحاً لك اميناً في النصيحة ، وواعظاً لك مخلصاً في الموعظة ، ومحذراً لك من الله الذي

حذّر النـــاسَ نفسَه ، ومذكراً لك بآيات الله الذي طلب اليهم ان يتذكروا آياته .

وما اجدر الذين يسوسون النـــاس ويدبرون امورهم ويقضون في انفسهم واموالهم ، ان يضعوا امامهم صحيفـــة يلقون عليها نظرهم بين حـين وحين ، وقد كتبت فيهـــا هاتان الآيتان الكريمتـان من سورة الحجرات : « يا ايهـــا الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى ان يكنّ خـــيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون . يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً . أيحب احدكم أن يأكل لحم اخيـــه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم . »

ذلك احرى ان يعصمهم من المظـــالم وان ينزههم عن الكيـد ، ويجنبهم كثيراً من الظن ، ويحملهم عـــلى ألا يأخذوا الناس بالشبهات .

رسالة القصد والغرور

•

يسرك الله للخير ، ويسر الخير لك ، وصرفك الله عن الشر ، وصرف الشر عنك ، ودلك الله على الحق ، ودل الحق عليك ، وساقك الله الى الصواب ، وساق الصواب اليك ، واشاع الله في قلبك الغبطة ، واسبغ على نفسك البهجة ، وانزل على ضميرك السكينة ، ونقى دخيلتك من الموجدة والضغينة وجعل ما ظهر من امرك بشراً ويمناً ، وما خفي من سرك دعة وأمناً ، ووطأ كنفك للصديق المقارب ، ومهد عفوك للعدو المجانب ، ورفع مكانك عن كيد الكائدين وحسد الحاسدين ، وخفض جناحك للائذين بك واللاجئين اليك ، وثبتك على ما رُكب في طبعك من اعطاء المحروم ، وإغاثة الملهوف ، واعانة المحتاج ، وتعزية الملتاع ، والأخذ

بيد الضعيف ، والتجاوز عن اساءة المسيء ، والاعراض عن جهل الجاهلين .

*

بهذا كله ادعو لك حين القاك وحين أنأى عنك ، وبهذا كله ادعو لنفسي حين اخلص لها خالياً اليها ، وحين أشغل عنها نافراً منها ، فالله يشهد ما احببت لنفسي شيئاً الا احببت لك مثله او خيراً منه ، وما كرهت لنفسي او من نفسي شيئاً الا تمنيت ان يعصمك الله منه ، وينزهك عنه ، ويجنبك التورط فيه . فانت رفيق الصبا وصديق الشباب ، وأنت شقيق نفسي واليف قلبي ، والشريك في النعمة حين تظل ، والحليف على النائبة حين تنوب ، والمعين على الخطب حين يدلهمّ ، والظهير على الايام حين تحدث فيها الاحداث وتتعقد فيها المشكلات . فما نصحت لك قط ولا أشرت عليك ولا رفقت بك الا رأيتني لها ناصحاً . وعليها مشيراً ، وبها رفيقاً .

وما أعلم انك احتجت قط الى نصح الصديق ومشورة الخليل كما تحتاج اليهما الآن حين ارتفعت منزلتك عند اصحاب الشأن ، وألقي اليك الخطير من ازمة الحكم ، فطمع فيك الطامعون ، واشفق منك المشفقون ، وانعقدت بك الآمال ، ولاذت بك الاماني ، واصبحت من وفور النعمة وبسطة الجاه بحيث لا تستقبل النهار ولا تستقبل الليل ولا تعبر ساعة من ساعاتهما او لحظة من لحظاتهما الا فكر

فيك مفكر يريد ان يستظل بجنـــاح من نعمتك او يتقي طائفاً من نقمتـــك ، فأنت المرجو المخوف ، وانت المحبب المبغض ، وأنت المرموق الموموق ، وأنت المغبوط المحسود . وإذا بلغ الانسان مثل ما بلغت من ارتفاع المنزلة وعـلو المكانة وانبساط السلطان وامتداد القوة كان خليقاً ان ينأى بنفسه عن الغرور والتيه ، ويبرئها من الصلف والكبرياء ، ويحميها من الاندفاع في الثقة والاعتـــداد بالحول والطول والاستغناء بالثراء والبأس ، ويذكر انه قد قوي بعد ضعف ، وأثرى بعد فقر ، واستغنى بعد احتياج ، وأن ضمائر الأيام تحفظ للناس من اسرار الغيب ما يحبون وما يكرهون ، وتدخر لهم من الاحداث ما يعرفون وما ينكرون . فمن اتيحت له القوة قـــد يقدّر له الضعف ، ومن مكّن له في الارض قد تنبو به الدار ، ومن ابتسمت له الايام قد يعبس له الدهر . النعمة وديعة في ايدي اصحابها قـــد يطلبها من استودعهم إياها ، والقوة عارية في ايدي الاقوياء قد تؤخذ منهم لتردّ عـــلى الضعفاء . والله عز وجل يقول : « وتلك الايام نداولها بين الناس » . وقد قال الشاعر القديم :

فيوم علينا ، ويوم لنا ويوم نساء ، ويوم نسر

فأحذرك اول ما أحذرك ايها الاخ الصديق والخليـــل الشفيق ، الاعتـــدادَ بالنفس ، والاغترار بالحول والطول ، والانخداع بابتسامات الدهر ، فانها قد تصدقك اليوم لتكذبك غداً ، فاحذر نفسك اول ما تحذر ، وأشفق عليها منها قبـل

ان تشفق عليها من الناس ، واذكر قول الله عز وجل في قصة يوسف عليه السلام : « وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء » فلا تنفذ لنفسك أمراً تتلقاه منها حتى تتدبره وتفكر فيه فتطيل التفكير . ومهما يواتك الحظ فاذكر حالك قبل ان يواتيك ، وقدّر أنك قد تعود إلى مثل ما كنت فيه ، واذكر رأيك في أصحاب الرأي قبل ان تكون منهم ، ونقدك لهم وحكمك عليهم قبل ان ترقى الى مكانك بينهم . واعلم ان الناس يقولون فيك مثل ما كنت تقول فيهم ، ويحكمون عليك بمثل ما كنت تحكم عليهم . واذكر في اول ما تذكر أن لك ضميراً يرضى ويسخط ، ويعرف وينكر ، ويحمد ويذم ، وان أعباء الحكم قد تشغلك عنه او تشغله عنك ، ما امتدت لك اسباب القوة . ولكنك ستفرغ له كما انه سيفرغ لك ، ذات يوم او ذات ليل ، فاحرص على ألا تسمع منه إلا خيراً .

*

وأنت بعد ذلك محتاج إلى نصح الصديق ومعونة الخليل فيما أحدث الحكم بينك وبين الناس من صلات ، فأنت تدبر أمورهم وترعى مرافقهم ، تسوسهم باللين حيناً وتسوسهم بالشدة أحياناً . فأنت تطمع وتخيف ، وأنت تشيع الرغب وتشيع الرهب ، وأنت تمدّ أسباب الرجاء وترسل إلى القلوب صواعق اليأس . فالناس بين مبتغٍ اليك الوسيلة ، ومتربص بك الدائرة ، ومنتهز فيك الفرصة . كلهم يُظهر لك المودة ،

واكثرهم يضمر الموجدة عليك ، ويطوي قلبه لك على شر ما تطوى عليه القلوب .

واخوف ما أخاف عليك من الناس : سعيهم عندك بالنميمة ، ومشيهم اليك بالوقيعة ، وابتغاؤهم رضاك بالوشاية . فالناس يبتغون الى الحاكم كل وسيلة ، ويتقربون اليه من كل سبيل . يتنافسون فيما عنده ، ويغريهم ذلك بان يكيد بعضهم لبعض ، ويمكر بعضهم ببعض ، ويتكذب بعضهم على بعض ، كلهم يريد ان ينال من الحكومة اكثر مما ينال غيره من النظراء ، وهم من اجل ذلك في همّ مقيم ، وتحاسد متصل ، وتباغض ملحّ ، يسعون الى آمالهم بما يستقيم من الطرق وما يعوج ، وبما يباح من السيرة وما يحظر ، وبما يحسن من القول والعمل وما يقبح ، يتبادلون المساءة فيما بينهم ولكنهم يختصونك بشرّ ما يتبادلون من النكر والسوء ، ويفسدون قلبك على الناس فيفسدون قلوب الناس عليك ، ويسيئون رأيك فيهم فيسيئون رأيهم فيك . ثم ينتهون آخر الامر الى ان يفسدوا عليك امرك ، ويسيئوا رأيك في نفسك ، ويباعدوا بينك وبين ضميرك ، وينغصوا عليك راحة الليل ونشاط النهار .

*

واذا وجب عليك ان تحذر نفسك وان تحذر الناس ، فقد يستبين لك ان الحكم نقمة لا نعمة ، ومحنة تُبتلى بها النفوس ، وتفتن بها القلوب ، وتمحص بها الضمائر ، فهو

عناء لا راحة ، وهو شقاء لا سعادة ، وهو قلق لا هدوء ، وهو خوف لا أمن . واذكر اصلحك الله أيام كنا نلتقي فنذكر فلاناً وفلانـــاً من الحكام الذين سبقوك ، نعيبهم كثيراً ، ونثني عليهم قليلاً ، ونرثي لهم دائماً ، ونتمنى للصديق منهم ان يجلي الله عنه الغمرة ، ويفرج عنه الكربة ، ويحط عنه اعباء الحكم وأوزاره ، ويرده الى الحياة الحرة السمحة التي لا يحمل الانسان فيها الا اوزار نفسه ، والتي لا يثقل الانسان نفسه فيها بأوزار الناس ، وما اكثر اوزار الناس !

ولقد تبسم راضياً او ساخطاً حين تعلم اني اكتب اليك هـــذه الرسالة ، وفي نفسي من الحب لك والرفق بك والاشفاق عليك ، ما يحملني على ان اسأل الله لك العافية ، واتمنى عليه ان يضع عنك إصر الحكم واغلاله ، وان يردك اليّ من هذه المحنة سالمـــاً موفوراً ، وقانعاً من الغنيمة بالاياب . فخير غنيمة للحاكمين ان يخرجوا من الحكم اتقياء كما كانوا قبل ان يدخلوا فيه ، لم يغنموا منه إلا سلامة الاياب !

رسائل وقعت لي لم أعرف ، على
طول البحث وشدة الاستقصاء ،
كاتبها ولا من كتبت اليه .

رسالة إلى ..

•

لست أدري كيف أدعوك ! فقد كنت فيما مضى من الايام أدعوك بالأخ العزيز والصديق الكريم ، وأنا أخشى ان اسوءك وان اسوء الحق إن دعوتك بهاتين الصفتين : احداهما أو كلتيهما .

أخشى ان اسوءك باثارة الحزن والأسى في نفسك وبأثارة الندم فيها ايضاً ، فأنت تعلم انك لم تبقَ لي أخاً عزيزاً لانك الغيت هذا الاخاء ، ولا صديقاً كريماً لانك قطعت اسباب هذه الصداقة . وقد يسوءك تذكيرك بما مضى ، وقد يحزنك ردك إلى ما سلف ، وقد يشق على نفسك ان تتبين ان لا سبيل إلى استدراك ما فات ، ولا إلى استئناف ما فرط ، فلأمرٍ ما أرسل القدماء مثلهم

المعروف : « سبق السيف العذل » .

وقد يثير الندم في نفسك أن تصدقك الذكرى بعد ان بعُد العهد ، وسكت الغضب ، ورضيت الاطماع ، وتغيرت الظروف ، فتنبئك بانك قد تجنيت في غير موضع للتجني ، وتكلفت القطيعة في غير مُقتض لتكلفها ، وأقدمت عليها حين كان كل شيء يدعوك إلى ان تحجم عنها وترفع نفسك عن إثمها ...!

نعم لست ادري كيف ادعوك ! فلست أريد أن أسوءك ، ولست أريد ان اسوء الحق ، فالحق يعلم انك كنت لي أخاً عزيزاً وصديقاً كريماً ، ثم الغيت الاخاء الغاء ، ومحوت الصداقة محواً . وما أحب ان ادعوك سيدي كما تعوّد الناس ان يدعوا من ليس بينهم وبينه صلة من مودة او إخاء ، فاني أشقّ على نفسي وأكلفها اكثر مما تطيق إن دعوتك بهذا الاسم ، وقد أشق على شيء هو أكرم عليّ من نفسي وإن لم يكن عليك كريماً وهو الذكرى .

ولعلك لم تنسَ بعد ما كنا نتحدث به ايام الصفاء من اننا قد بلغنا السن التي يحرص الناس فيها على الذكرى كما يحرصون على أنفس الكنوز لأنها خير من كل ما بقي لهم ، أو هي خير ما بقي لهم من حياة قد مضى اكثرها ولم يبق إلا أقلها ، وليس إلى استئنافها من سبيل .

وكنا نقول في ايام الصفاء تلك ، إنا قد بلغنا السن التي يحتفظ فيها الرجل الكريم بشيئين أشد الاحتفاظ ، ويحرص

عليهما اعظم الحرص ، ويضن بهما اكثر مما يضن البخيل بماله ، وهما : الذكرى التي تستبقي له حياته او ما يمكن استبقاؤه من هذه الحياة ، والصداقة التي تصل بينه وبين الدنيا حين تتقطع الاسباب بينه وبين الدنيا كلما مرت ساعة من ليل او ساعة من نهار . وكنا نتواصى في ايام الصفاء تلك بان يخلو كل واحد منا الى نفسه ما استطاع ، فيستحضر الماضي كله ويعصره عصراً ليستخلص منه ما يستطيع ان يستخلصه من الذكرى وليسجله في كتاب حتى لا تعبث به الأحداث ، وحتى لا تذهب به الايام ، وحتى لا تمحوه هذه الشيخوخة التي تسرع الينا او نسرع اليها ، والتي تفني كل شيء فينا قليلاً قليلاً ، فكنا نريد ان نستخلص الذكرى من الأحداث والأيام والشيخوخة ونكرهها على البقاء ، لأننا نجد العزاء كل العزاء في الرجوع اليها والاستماع لما تقصّ علينا من احاديث أنفسنا ، والاستمتاع باستحضار ما عملنا ، وما لا نستطيع ان نعمل .

وكنت أحبك أشد الحب ، وأوثرك على الناس جميعاً ، وأوثرك على نفسي قبل ان اوثرك على الناس . وكنت تحبني أشد الحب ، وتؤثرني على الناس جميعاً ، وتؤثرني على نفسك قبل ان تؤثرني على الناس . وكان كل واحد منا حريصاً من أجل ذلك على ان يعرف من أمر صاحبه كل شيء .

كنتَ انت قد بلغت الثلاثين ، وكان بيني وبينها اعوام

قليلة حين التقينا وحين اصطفى كل واحد منا صاحبه على غيره من اللذات والأتراب . ومنذ ذلك الوقت لم يخف على احدنا من أمر صاحبه شيء . ولكن كلاً منا كان يجهل صبى صاحبه وشبابه ، وكان يحرص على ان يعرف صبى صاحبه وشبابه . وكنا نتواصى في اوقات الصفاء تلك بان نستقصي فنحسن الاستقصاء ، وبان نحصي فنتقن الاحصاء ، وبان نسأل الأهل عما كان من أمر طفولتنا حتى لا يفوت أحدنا من أمر صاحبه قليل او كثير . كان كل واحد منا حريصاً على ان يعمر قلبه بصورة من صاحبه كاملة الى اقصى ما يتاح للأشياء الانسانية من الكمال .

أتذكر هذا كله ، ام نسيته كما نسيت كثيراً غيره من الأشياء ؟ اما انا فأذكره كما أذكر نفسي ، وأنعم به كما انعم بنفسي ، وأشقى به كما اشقى بنفسي ايضاً . فأنت تعلم ان الانسان المتفكر يجد في نفسه ينبوعين يفيض احدهما بالسعادة ، ويفيض ثانيهما بالشقاء .

لم انس من هذا كله شيئاً ، ولن انسى من هذا كله شيئاً ، وسأنعم بهذا كله فاجد شقاء في هذا النعيم لأنه لا يزداد ولا ينمو ولا يتجدد ، وسأشقى بهذا كله فأجد نعيما في هذا الشقاء لانه يستبقي لي سعادة قد بلوتها فحمدت بلاءها وما زلت أذوقها واحرص على استبقاء هذا المذاق .

كل هذا اقوله لأني لا ادري كيف ادعوك ... فلست أخي العزيز ، ولست صديقي الكريم لأنك لا تريد ان تكون

هذا ولا ذاك ، ولست سيدي لاني لا اريد ان ادعوك بهذا اللفظ السخيف الفارغ الذي لا يدل على شيء . وما حاجتي إلى ان أدعوك ! وما حاجتك إلى هذا الدعاء ! وما يمنعني ان أكتب اليك دون ان ابدأ رسالتي بما تعوّد الناس ان يبدأوا به رسائلهم من هذه الألفاظ . إنك لتفهم عني وإن لم أدعك ، وإني لأوجه اليك القول وإن لم تسمع دعائي . وما حاجتي إلى ان أدعوك وأنا لن أرسل اليك هذا الكتاب في بيتك في القاهرة ، أو في مصيفك في الاسكندرية ، أو غيرها من مصايف مصر ، فلست أعرف اين تصطاف ، وقد مضى زمن كنت أسأل فيه عنك في أي فصل من فصول السنة ، وفي أي شهر من شهورها ، وفي أي يوم من ايام الشهر ، وفي أي ساعة من ساعات اليوم ، فأعرف أين تكون ... وأدلُّ سائلي على مكانك من دارك ، أو مكتبك ، أو ناديك ، أو ما شئت من هذه الاماكن التي كنت تضطرب بينها وتختلف اليها . فأما الآن فانا أجهل من أمرك كل شيء إلا هذه الانباء التي أقرأها في هذه الصحيفة او تلك .

فأنت رجل تتحدث عنه الصحف فتكثر الحديث ، وتروي انباءه فتحسن رواية الانباء . لا اعرف من أمرك إلا ما يعرفه كل قارىء للصحف ، ولا ألقاك إلا حين تفرض علينا ظروف الحياة ان نلتقي في هذا الحفل او ذاك . وقد يقبل احدنا على صاحبه مكرهاً فيهدي اليه تحية فاترة ملؤها

الاستحياء او الاستخذاء ، وفيها كثير من التعجل ؛ وفيها كثير الرغبة في ان يطرأ طاريء او يقبل مقبل او يكون شيء من هذه الاشياء الكثيرة التي يفترق لها الناس بعد اجتماع ، ويشغل بها بعض الناس عن بعض في هذه المواطن التي يقوم الامر كله فيها على التكلف والتجمل والرياء . لا اعرف من امرك إلا ما يعرف الناس جميعاً ، ولا ألقاك إلا كما يلقى بعض الناس بعضاً في هذه الاجتماعات السخيفة البغيضة التي تسوء اكثر مما تسر وتغيظ اكثر مما ترضي ، والتي لا أشهدها إلا رجعت منها بالسخط على نفسي وعلى الناس .

أتذكر ؟! لقد كنا نتحدث في ذلك فنطيل الحديث ، نضحك منه كثيراً ، ونحزن له كثيراً ، ونسخر منه دائماً .

لا اعرف من امرك إلا ما يعرف الناس جميعاً ، ولا القاك إلا في هذا الفصل الذي يلتقي الناس فيه حول مائدة من موائد الشاي او موائد الطعام . لا اسمع صوتك في التليفون قبل ان يرتفع الضحى ، ولا اسمع صوتك في التليفون حين يتقدم الليل ، ولا تسعدني زيارتك حين اقيم ، ولا تؤنسني رسائلك حين اغترب . ومن اجل ذلك اكتب اليك دون ان اضع عنوانك على هذا الكتاب ودون ان أسلم هذا الكتاب إلى البريد ، لانا فقدنا عادة المكاتبة ، كما فقدنا عادة التزاور ، وكما فقدنا عادة الحديث بالتليفون . وانا مع ذلك اكتب اليك وأسلم كتابي الى مجلة الهلال لاني واثق

بأنه سيصل اليك دون ان تعرف مجلة الهلال لمن اكتب او إلى من اسوق الحديث ! ودون أن يعرف أحد من قراء الهلال لمن اكتب وإلى من أسوق الحديث ، إلا انت ، فستعرف حق المعرفة لمن اكتب والى من اسوق الحديث .

ستقرأ هذا الكتاب ما في ذلك شك ، لأنك تقرأ كل ما اكتب كما اقرأ انا كل ما تكتب ، فأنت مريض بي كما اني مريض بك ، لا نلتقي ولا نتزاور ولا نتحدث ، ولكننا نتصل على رغم هذا كله اتصالاً يشوبه الرضى حيناً ، ويشوبه السخط حيناً ، ويشوبه الحزن دائماً .

ستقرأ هذا الكتاب وستعلم انه موجه اليك ، وسترى نفسك فيه فتنكرها اشد الانكار وتود لو تجهلها ولو تستطيع ان تفلت منها ، وستحاول ذلك ما وسعتك المحاولة ، ولكنك لن تبلغ من ذلك شيئا .

فهناك شيئان لا يستطيع الانسان ان يفلت منهما مهما يجهد ومهما يحاول ... لا يستطيع الانسان ان يفلت من نفسه ، ولا يستطيع الانسان ان يفلت من ملك ربه كما يقول ابو العلاء .

سترى نفسك في هذا الكتاب ، وستنكرها اشد الانكار ، وسيلذع الندم قلبك على ما اضعت من حق ، وما بددت من مودة كان يجب عليك ان تحتفظ بها ، ولكنك ستتكلف النسيان ، وستنسى احيانا ، وسيعود اليك الندم فيعذّب قلبك عذاباً شديداً . انك تود لو تستطيع ان تصل ما انقطع

من الاسباب وتجمع ما تفرق من الشمل ، ولكنك ستجد بينك وبين هذا امداً بعيداً لا سبيل إلى قطعه ، وهوة سحيقة لا سبيل الى عبورها . فالدواعي التي دفعتك إلى القطيعة ما زالت قائمة لم تمحها الظروف بعد ، وستمحوها الظروف من غير شك غداً او بعد غد . ولكنك حينئذ ستستحي من التفكير في وصل ما قطعتَ من سبب ، وجمع ما فرقت من شمل ، وستؤثر الموت على العودة الى صديق قطعت اسباب وده طلباً للمنفعة ، وتهالكاً على اعراض الحياة ، ورغبةً في الوصول إلى ما كانت نفسك تتقطع عليه حسرات .

لقد كنت تجهل نفسك جهلا شديداً ، وما أرى إلا انك تجهل نفسك جهلًا شديداً وان كنت قد بلغت سن «الشيوخ» . وليس عليك من ذلك بأس . فالحكمة التي كتبت على معبد « دلف » لم تُكتب عبثاً ... طلبت الى الانسان ان يعرف نفسه بنفسه ، وقد اجتهد سقراط في ان يستجيب لهذه الحكمة ، وفي ان يعرف نفسه ، فلم يبلغ ما أراد . وما أحسبك أذكى قلباً ، ولا أمضى عزماً ، ولا أشدّ جلداً من سقراط .

لقد كنت تجهل نفسك . كنت ترى نفسك رجلًا خيّراً مؤثراً ، فكشفت لك الايام عن رجل قد يكون خيراً ولكنه ليس من الايثار في شيء ، وإنما هو من الاثرة في كل شيء !

كنت ترى نفسك زاهداً في متاع الدنيا وأعراض الحياة ، فكشفت لك الايام عن رجل قد يرتفع بنفسه عن المتاع الدنيء والاعراض المخزية ولكنه يتتبع الثراء ما استطاع اليه سبيلاً ، والجاه ما وجد اليه مسلكا ، وغرور المنصب ما اتيح له هذا الغرور .. يؤثر هذا كله على كل شيء حتى على الوفاء ، وعلى كل انسان حتى على الاخ العزيز والصديق الكريم . انك « اديب » ولكنك تحب الادب السهل وتكره الادب العسير . ولم يكن شيء يغيظك في ايام الصفاء تلك كما كان يغيظك تحدثي اليك عن بعض آيات الادب الرفيع . كنت تراني اعيش في السحاب ، وكنت تطلب اليّ ان اهبط الى الارض ، وكنت تشكو اليّ ما اشقّ به عليك من هذه المعاني التي لم نألفها في شعر شعرائنا ونثر كتابنا ومن هذه الآمال التي لم نألفها في حياتنا المتواضعة الراكدة .

فدعني اشق عليك مرة اخرى ببعض هذا الادب الرفيع الذي كنت تضيق به اشد الضيق . وعلمَ الله ما كتبت اليك لاشقّ عليك ، ولكن هذا الادب الرفيع قد يُظهر الناس على نفوسهم احياناً ، وانا احب ان اظهرك على بعض نفسك لعلك تتذكر او تخشى ، ولعلك تستقبل ايامك بغير ما تعودت ان تستقبلها به الى الآن . اني اقرأ في قصة تمثيلية لشاعر يوناني لست في حاجة الى ان اسميه ، لان اسمه لن يدلك على شيء ، اقرأ في هذه القصة اليونانية حديث

امّ الى ابنها ، وقد لقيَتْهُ بعد نفي طويل .. فهي تسأله عن حياته في المنفى وتقول له فيما تقول : ألم يُعنك اصدقاء أبيك وهؤلاء الذين نزلت عليهم ضيفاً ؟ فيجيبها : يجب ان يكون الانسان سعيداً ليجد مودة الاصدقاء ، فان الاصدقاء لا يُغنون عن الصديق البائس شيئاً .

واقرأ في قصة فرنسية لكاتب لا اسميه ، لان اسمه لن يدلك على شيء ، ان الصداقة تقف الانسان عن ان يتقدم الى امام وقد ترجع به احياناً الى وراء . فمن الخير الا يستبقي الانسان صداقة تمنعه من الرقي الى ما يطمح الى تحقيقه من الآمال .

أرأيت لم يهجر الصديقُ الصديقَ ؟ أرأيت لم يعرض الخليل عن ود الخليل ؟ ارأيت لم قال الشاعر العربي القديم :

غاض الوفاء وفاض الغدر وانفرجت

مسافة الخلف بين القول والعمل

*

عد الان الى نفسك وسلها : متى رثّت اسباب الود بينك وبيني ومتى انقطعت هذه الاسباب ؟.. فستفهم كل شيء ، وستعرف من امر نفسك ما خفي عليك . والله يداول الايام بين الناس ، والارض تدور والظروف تتغير ، وسترى قوماً يألفونك الان ويتهالكون عليك كما يتهالك الذباب على الطعام الشهي . ستراهم حين يُتم الزمن دورة من دوراته ، وحين يبدّل الله من قوم لقوم ، وحين تذهب ظروفٌ

وتأتي مكانها ظروف اخرى وقد انصرفوا عنك كما انصرفت انت عن بعض الناس ، وتنكّروا لك كما تنكرت انت لبعض الناس . فاذا مضت الايام استحيوا منك كما تستحي انت الآن من بعض الناس .

صدّقني اني لا اعرف الرجل الكريم حقاً الا بخصلة واحدة ، هي ان يتجنب فيما بينه وبين الناس من صلة ، ما من شأنه ان يخزيه امام نفسه .. فالرجل الذي لا يخزى امام نفسه خليق الا يخزى امام الناس ، والرجل الذي يكره ان يستحي امام ضميره حين يُجنه الليل ويسكن من حوله كل شيء خليق ان يتجنب ما يضطره الى ان يستحي من الناس .

صدقني إن نفوس الناس معادن ، ومن المعادن ما يعلوه الصدأ ، ومنها ما لا يجد الصدأ اليه سبيلًا . وكم كنت اتمنى ان تكون نفسك اصفى واتقى وأقوم وامتن من ان يعلوها الصدأ او تعبث بها الخطوب . ولكن لا بد مما ليس منه بد ، ولا سبيل الى اصلاح ما افسدت الايام .

*

أفهمت الآن لمَ لم ارسل كتابي اليك ؟ . . أفهمت الآن لمَ لم اعرف كيف أبدأ كتابي اليك ؟ وهناك شيء آخر أحب ان تفهمه فقد يكون في فهمك إياه بعض هذا العزاء الرخيص : لماذا كتبتُ هذا الكتاب ، وقد انقطعت الاسباب بينك وبيني ، ولماذا نشرتُ هذا الكتاب في

الهلال ؟! لسبب يسير جـــداً وهو ان امثالك في الناس كثيرون بل اكثر جداً مما تظن ، فليس هذا الكتاب الا مرآة لن تكون أنت الشخص الوحيد الذي يرى نفسه فيها .

قلب مغلق

•

لا تغضب ، فلم أرد الى إغضابك ، ولو قد اردت اليه لما استطعته ولا قدرت عليه ، فانت رجل متئدٌ رزين ، شديد الوقار ، عظيم الحلم . لا يشبه حلمك بالبُرد كما كان يصنع ابو تمام ، لانه ليس حلماً حضرياً مترفاً ، وانما يشبه بثبات الصخر واستقرار الجبال كما كان يصنع الفرزدق ، لا لانه حلم بدوي ساذج كحلم قيس بن عاصم أو الاحنف بن قيس او معاوية بن ابي سفيان ، بل لانه حلم يأتي من هذا الحجاب الصفيق الذي ضرب بين قلبك وبين الاحداث والخطوب . فانت رجلٌ لا تبلغك الأحداث ، ولا تصل اليك الخطوب . قد أُلقيت بينك وبين حياة الناس أستار كثاف ، وعشت انت من دون هذه الاستارِ مشغولاً بنفسك

عن كل شيء ، ومنصرفاً الى نفسك عن كل انسان . يستطيع الناس من حولك ان يرضوا ويسخطوا ، وان يثوروا ويهدأوا ، وان يأمنوا ويخافوا ، وان يتجهوا اليك ليشركوك في رضائهم وسخطهم ، وليقسموا لك حظاً من هدوئهم وثورتهم ، ولينعموا معك بالأمن ان أتيح لهم الامن ، وليستعينوا بك على الخوف ان سُلط عليهم الخوف ، ولكنهم لن يبلغوا من ذلك شيئاً ، لأنهم لن يستطيعوا ان يتجاوزوا ما ألقي بينك وبينهم من حجب ، ولا ما أسدل بينك وبينهم من استار .

*

إنما انت رجل مُحْصَن ، لا يبلغه العدو ولا يصل اليه الصديق ، واكاد اعتقد ان ليس لك عدو ولا صديق . شُغلت بنفسك حتى يئس الناس منك ، واعرض الناس عنك فلم يطمع فيك منهم طامع ، ولو قد فعل لما نال منك شيئاً ، ولم يعطف عليك منهم عاطف ، ولو قد فعل لما نالك منه شيء . والناس مع ذلك لا يرون شيئاً من هذا الحصن المؤشّب الذي حصنت فيه نفسك ، ولا من هذه الحجب الصفاق التي قامت بينك وبينهم ، ولا من هذه الاستار الكثاف التي القيت عليك من دونهم . وإنما هم يرونك مصبحاً وممسياً ، ويلقونك غادياً ورائحاً ، يقولون لك فتسمع منهم ، وتقول لهم فيسمعون منك ، يجاذبونك هذه الاطراف الرثة السخيفة التي يتجاذبها الناس حين يحيون في البيئة

الواحدة ، ويخضعون للنظام الواحد ، ويشاركون في هذا العيش الذي يعيشه المتحضرون ، فأنت قريب منهم كأشد ما يكون القرب ، تمد اليهم يدك ويمدون اليك أيديهم ، ترد عليهم تحيتهم ويردون عليك تحيتك . وانت بعيد عنهم كأقصى ما يكون البعد ، تلقاهم وكأنما تحلم بلقائهم ، ويلقونك وكأنما يلقون ظلاً لك مستعاراً . بينك وبينهم أسباب مصنوعة وصلات متكلفة لا تبلغ النفس ولا تتصل بالقلب ، فهي لا تثير في عقلك تفكيراً ولا تثير في قلبك شعوراً ، لمكان هذا الحصن المؤشب الذي لا يُرى ، ولمكان هذه الاستار والحجب الكثاف التي لا تحس . وما ادري احاولت قط ان تعرف ام حاولوا هم قط ان يعرفوا طبيعة هذا الحصن المؤشب ، ومادة هذه الحجب والاستار الكثاف . ولكن انا قد حاولت ، وكتب لمحاولتي النجاح والتوفيق . وانا اكتب اليك لأعلمك من امر هذا الحصن ما لم تعلم ، واعرفك من امر هذه الحجب والاستار ما لم تعرف ، وما يعنيني ان تنتفع بهذا العلم او لا تنتفع ، وان تستفيد من هذه المعرفة او لا تستفيد . فلو قد اردت ان انفعك او افيدك لخصصتك بهذا الكتاب من دون الناس ، ولكنك ترى اني لم ارسله اليك ، وانما نشرته في الهلال لتقرأه انت او لا تقرأه ، وليقرأه غيرك من الناس على كل حال . فمن حق الناس ان يعلموا ان بينك وبينهم حصناً مؤشباً وحجباً صفاقاً واستاراً كثافاً ، وان ينظروا لأنفسهم أيطمعون

فيك وينتظرون منك الخير ، فيجب عليهم ان يحتالوا في اقتحام هذا الحصن ، وإزالة هذه الحجب ، وتمزيق هذه الاستار ، ام يستيئسون منك فيجب عليهم ان يخلوا بينك وبين هذه العزلة التي اخترتها او اختارتك ، وان يمضوا في طريقهم ويسعوا إلى غايتهم لا يشغلون انفسهم بك كما انك لا تشغل نفسك بهم .

*

فما ينبغي ان يظل الناس من امرك في هذه الحيرة المتصلة ، يرونك واحداً منهم ويقدرون انك متضامن معهم في حمل اثقال الحياة والنهوض بأعبائها ، حتى اذا جد الجد افتقدوك فلم يجدوك ، واذا انت سراب يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ، ووجد عنده الحزن واليأس وخيبة الامل وكذب الرجاء . انهم ينظرون فيرون غنى موفوراً ، ونعمة واسعة ، وعيشاً ليناً ، وثراء عريضاً ، وانهم يسمعون فيقع في آذانهم صوت عذب ممتلىء تشيع فيه القوة وتفيض منه الحرارة ، ويحمل الى قلوبهم ألفاظاً حلوة رائقة شائقة ، فيها كثير من امل ، وفيها كثير من وعد ، وفيها إحياء للطمع الميت ، وإيقاظ للطموح النائم ، وإشعار بان الناس قد خلقوا للتعاون والتضامن ، وليظاهر بعضهم بعضاً حين تنوب النوائب ، وليشد بعضهم ازر بعض حين تدلهم الخطوب . ولكنهم يستقبلون من امورهم ما يظلم وما يشرق ، وينهضون من اعمالهم بما

يخف وما يثقل ، ويلتمسونك ليستعينوا بك على تبديد الظلمة ، ويبتهجوا معك بجمال النور المشرق ، ويستمتعوا معك بجمل الاعباء الخفاف في فرح ومرح ونشاط ، ويجهدوا معك بجمل الاعباء الثقال في صبر وأيد ، وحزم وثبات . يلتمسونك فلا يجدونك ، او هم يجدونك حين تشرق النعماء ، ويفقدونك حين تظلم البأساء . انت شريكهم في العيش الرضيّ والحياة المقبلة ، وأنت ابعد الناس عنهم حين يغلظ العيش ، ويعظم البأس ، وتدبر الحياة . تسرع اليهم حين ينعمون لتشارك في نعيمهم على ان ذلك حق لك لا ينبغي لاحد ان يردك عنه او ان يجادلك فيه ، ولعلك تأخذ من هذا النعيم — ان اتيح — بحظ اعظم من حظوظهم ، ولعلك تنظر اليهم وهم يأخذون بحظوظهم المتواضعة الضئيلة ، ساخطاً عليهم ضيقاً بهم ، مزدرياً لهم ، ترى انهم واغلون يشاركون فيما لا حق لهم ان يشاركوا فيه ، ويأخذون مما لا حق لهم ان يأخذوا منه ، ولعلك ان تردّهم عن هذا النعيم إن استطعت لهم رداً ، وان تذودهم عن هذا الصفو ان استطعت لهم ذياداً . وانت على كل حال تنظر اليهم شزراً ، وتقيم معهم على مضض ، تستأثر من دونهم بالكثير ، وتحسدهم على ما يتاح لهم من القليل . فاذا ادبرت الدنيا ، وأظلمت الحياة ، واكتأب الامل ، وجدّ الجد ، والتمس الناس المعين على ما يلم بهم من شقاء وبأس ، آويت الى حصنك هذا المؤشب ، والقيت من دونك هذه الحجب الصفاق ، واسدلت

بينك وبين الناس من الاستار الكثاف ، ونعمت بعزلتك نعمة هادئة مطمئنة ، لا ينغصها منظر البؤس ولا يكدرها صوت الشكاة ، ولا يشوبها تفكير في البائسين ، سواء منهم من احتمل البؤس صامتاً صابراً جلداً ، ومن احتمل البؤس صائحاً صاخباً شاكياً الى الله والى الناس .

ما طبيعة هذا الحصن المؤشب ، وما مادة هذه الحجب والاستار ؟ وكيف السبيل الى ان يخرجك الناس من عزلتك هذه الراضية ، لتسعد معهم اذا سعدوا ، وتشقى معهم اذا شقوا ، وتشاركهم في استقبال الحياة حين تشرق وحين تظلم ؟

هذه هي المسألة التي حاولت ان اجد لها حلاً ، وأتيح لمحاولتي هذه شيء من التوفيق .

إنّ حصنك هذا المؤشب يا سيدي ، ليس الا قلبك المقفل الذي لا ينفذ اليه شعور بالتضامن او حاجة الى التعاون ، والذي لا تصل اليه رحمة حين يحتاج الناس الى الرحمة ، ولا رفق حين يحتاج الناس الى الرفق ، ولا رثاء حين يحتاج الناس الى الرثاء . إنه قلب قد صُور من صخر مجوف تستطيع ان تودعه كل ما شئت من امل لا حد له ، وطمع لا ينتهي الى غاية ، وجشع بشع ليس له قرار ، وشهوات جامحة لا سبيل الى ضبطها ، وطموح لا يحده الا الموت ، ولكنه على ذلك مقفل مصمت من جميع جوانبه ، لا ينفذ الى داخله أيسر

الضوء ولا ارق النسيم ، ولا سبيل الى تحطيمه لانه اقسى واصلب من ان تبلغ منه المعاول . فهو كالحجارة او اشد قسوة ، وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار ، وان منها لما يشّقّق فيخرج منه الماء . ولكن قلبك لا يتفجر منه نهر يفيض على الناس برحمة او برّ او مودة او إخاء ، ولكن قلبك لا ينشق فتخرج منه قطرة تروي ظمأ الظامىء او تخفف من لوعة المكروب ، قد صُوّر من صخر صلب صلد مصمت من جميع جوانبه . ولم يكفك ما فطر عليه من صلابة وصلادة وإصمات ، فوضعت عليه قفلًا لا أدري اقصدت به الى الاغراق في التحفظ والاحتياط ، ام قصدت به الى التأنق والزينة وكيد الحسود ، فهو قفل رشيق أنيق ، تراه العين فتمتلىء النفس له إكباراً واعظاماً ، ويمتلىء القلب به اعجاباً ، وتتقطع الافئدة له حسرات . قفل من ذهب نضار ترصعه ضروب الجوهر والاحجار الكريمة النادرة ، قد صاغته لك الايام في كرّها والليالي في مرّها ، فأنت به معجب ، وله مكبر ، وعليه حريص ، وانت به مفاخر ، حيناً تظهره حتى يملأ النفوس حسداً وحقداً ، وانت به ضنين تخفيه حيناً حتى تتقطع القلوب تشوقاً اليه وتفكراً فيه ، وانت في داخل هذا القلب الصلب الصلد المصمت ذي القفل الذهبي المرصع ، هادىء لا تحس اضطراب من حولك من الناس ، وادع لا تسمع اصطخاب من حولك من البائسين ، قد اغمضت عينيك فلا ترى ما يسوءك ، وقد

سددت اذنيك فلا تسمع ما يؤذيك ، وقد الغيت حواسك كلها او سخرتها لهواك فلا تحمل اليك الا ما تحب ، وانت قد تفتح عينيك واذنيك وترهف حسك ، فترى وكأنك لا ترى ، وتسمع وكأنك لا تسمع ، وتجد غلظ الحياة وقسوتها وكأنك لا تجد شيئاً . قد حصنت نفسك بهذا التلب الصخري الصلب الصلد الذي لا تعمل فيه المعاول ولا ينفذ منه الضوء او النسيم ، وقد وضعت عليه هذا التفل الذهبي المرصع لتملأ القلوب الاخرى ، التي لم تصوّر من صخر ، وإنما صورت من لحم ودم ، حزناً ويأساً وحقداً وحسداً . وانت تنظر الى هذه القلوب التي يحرقها الحزن وتمزقها الحسرات في كثير جداً من التعالي والكبرياء ، وفي كثير جداً من الاحتقار والازدراء . ولعلك تنعم بما ترى من الشرّ ، ولعلك تسعد بما ترى من البؤس ، ولعلك تقول لنفسك حين تتحدث إلى نفسك ، وما أقلّ ما تتحدث الى نفسك ، لقد صُرف عني هذا الشر وعدل عني بهذا البؤس ، واريد ان أحيا هذه الحياة الحلوة التي تشتق حلاوتها مما يحيط بها من مرارة ، اللينة التي يُستخلص لينها مما يحيط بها من شدة ، الناعمة التي يُستصفى نعيمها مما يحيط بها من البأساء .

فلأنعم ما دام قد كتب لي النعيم ، ولاسعد ما دامت قد اتيحت لي السعادة ، وليبتئس غيري وليشقَ ما دام قد كتب على غيري البؤس والشقاء .

*

حدثني ، أليست هذه دخيلة نفسك حين تخلو اليها ، إن خلوت اليها ، وحين تشغل عنها بما تستمتع به من لذة وبما تجمع من ثروة وبما تحقق من فوز ؟

أليست هذه دخيلة نفسك التي لا تتحرج من ان تصارح بها حين يجري الحديث بينك وبين نظرائك ، عما يملأ الارض من بؤس وبغض وشقاء ؟ بلى هذه دخيلة نفسك تخفيها كثيراً وتظهرها قليلاً وتشغل عنها بلذتك وثروتك في اكثر الاحيان ، ولكن انظر ، انك ترى في الارض انهاراً تجري وينابيع تفيض ، وانك تستغل هذه الانهار الجارية وهذه الينابيع المتدفقة لتمعن في لذاتك وتزيد الى ثرائك ثراء ، فهل علمت كيف تفجرت هذه الانهار ؟ وهل علمت كيف انشقت الارض عن هذه الينابيع ؟ وهل علمت ان قلبك ، مهما يكن حظه من الصلابة والصلادة ومن الأصمات والقسوة ، لن يستطيع ان يقاوم الاحداث ، ولا ان يثبت للخطوب ، ولا ان يحتفظ بهذا القفل الذهبي المرصع الذي علقته او علقته لك الايام عليه ؟

*

ان الحوادث والخطوب تعبث بالقلوب مهما تكن قسوتها ومهما تكن اقفالها . وان ساعة من الدهر تأتي على هذه القلوب الصلبة الصلدة المصمتة القاسية فتذيبها ، او تحيلها هباء تذروه الرياح . انظر ، لقد كانت قبلك قلوب صلبة صلدة

مقفلة قد احتبست من ألوان اللذة والاثم ، ومن ضروب الطمع والجشع ، ومن خصال الاثرة والبخل ، ما لا يحصى ولا يوصف . ثم أتت عليها هذه الساعة من ساعات الدهر فذهبت بها وباصحابها . وهذه الساعة آتية عليك وعلى قلبك فذاهبة بك وبقلبك إلى حيث يذهب الناس ثم لا يرجعون .

صدقني ان من الخير لك ولمن حولك من الناس ان تحدث في قلبك هذا المصمت المقفل صدعاً يسيراً ينفذ منه الضوء ليبدد بعض ما فيه من ظلمة ، وينفذ منه النسيم ليطفىء بعض ما فيه من لظى . وصدقني ان من الخير الكثير لك ولغيرك من الناس ان تدير مفتاحك الذهبي في قفلك هذا المرصع ، وان تفتح قلبك ولو قليلاً ليصل اليه بعض ما في هذا العالم مما يثير الرحمة ، ويشيع الرفق ، ويعطف بعضَ الناس على بعض .

*

صدقني ان من الخير الكثير لك ولغيرك ان تصدع قلبك قبل ان تصدعه الاحداث ، وان تفتح قلبك قبل ان تفتحه الخطوب ، وان تشعر من حولك من الناس بانك تجد بعض ما يجدون ، وتعتقد مثل ما يعتقدون . انك مثلهم قد خلقت من تراب وستعود الى التراب ، وان الذين يستوون قبل ان يدخلوا الحياة ويستوون بعد ان يخرجوا من الحياة ليسوا في حاجة الى ان يتمايز بعضهم من بعض ، ويبغي

بعضهم على بعض ، في هذه الطريق القصيرة التي يسلكونها
بين المهود واللحود .

من بعيد

•

لست أدري ما سؤالك عن هؤلاء النفر من اصدقائنا القدماء ، الا ان تكون نفسك في حاجة الى شيء من الألم بعد ان أغرقت في اللذة ، والى شيء من الحزن بعد ان أسرف عليها السرور . فانت رجل قد اتيحت لك الحياة النائية الراضية ، وقضت لك الاقدار ان تستقبل النهار مغتبطاً حين يشرق نوره ، وتستقبل الليل مبتهجاً حين تدلهم ظلمته ، وتنفق ما بين اسفار الصبح واظلام الليل في عمل هادىء مريح ، وتنفق ما بين مغرب الشمس وانتصاف الليل في فنون من اللذات تملأ النفوس بشراً ، والقلوب حبورا . وكل شيء منته الى السأم اذا اتصل ، حتى الحياة الراضية ، والنعمة السابغة ، والعيش الهادىء المطمئن ، فلست انكر

منك ان تملّ هذا النعيم المقيم ، وتطمع في الترفيه على نفسك ، بقليل من البؤس يأتيك من بعيد ، وفضلٍ من الحزن يعبر اليك البحر ، ويبلغ نفسك الوادعة الهادئة ، كأنه الصدى الضئيل النحيل ، والناس يرفهون على انفسهم كما يستطيعون ، والله يقسم الحظوظ بينهم كما يريد .

قوم يتعزون عن النعيم المقيم ، واللذة الملحة ، بالحزن الطارىء ، والألم الملمّ . وقوم يتعزون عن الشقاء المتصل ، والبؤس اللازم ، بالنسمات الخفاف اللطاف ، يتنسمونها من الشمال والجنوب ، ان اتيح لهم ان يتلقوا نسيم الشمال او نسيم الجنوب . وفيك والحمد لله جمرح وجنوح ، واعوجاج والتواء ، وانحراف عن الجادة حين يطول عليك السير في الجادة ، وطموح الى الشرّ حين تتصل عليك صحبة الخير ، ورغبة في البؤس حين يثقل عليك اتصال النعيم . وعلل نفسك ان شئت بما شئت ، فقل انك غريب تريد ان تتصل بذوي مودتك ، وتتعرف من انبائهم ما يخفف عليك ثقل الغربة ، وقل انك وفيّ لا تنسى الصديق ، وقل انك امين لا تجحد حقوق الاخوان ، وقل انك مؤثر لا تريد ان تنفرد بالسعادة والغبطة ، وان تشغل بنفسك في حياتك الجديدة الناعمة ، عن الذين شاركوك في حياتك القديمة البائسة . قل ما شئت من ذلك فقد يصدقك غيري من الناس . فاما انا فقد عرفتك حق المعرفة ، وبلوت من سيرتك ، واخلاقك ، ومن طبعك ، ومزاجك ، ما

يعصمني من الخطأ في تقدير ما يصدر عنك ، من قول او عمل .

لستَ غريباً يسأل عن الصديق ليخفف عن نفسه ثقل الغربة ، ولست وفياً يسأل عن الصديق ليبرّهم ويسرهم ويؤذنهم بانه لم ينسهم ولن ينساهم . ولستَ مؤثراً يسأل عن الصديق ليشعرهم بانه لا يريد ان ينفرد من دونهم ، بما أتيح له من الطيبات ، وانما انت رجل قلق لا يستقر على حال ، سؤوم لا يطمئن الى لون من العيش ، طلعة لا يستطيع ان يعيش الا اذا اظهرته الايام على جديد من الامر ، وانت بعد هذا كله أثِرٌ لا تستمتع بالنعمة التي تتاح لك ، الا اذا عرفت النقمة التي تُصب على غيرك ، ولا تسيغ اللذة التي تسعى اليك الا اذا استيقنت ان قوماً غيرك يتجرعون من الألم غصصاً ، ويلقون منه اهوالاً .

*

ولقد قرأت كتابك فسرني وساءني ، وفي كل شيء يأتي منك ما يسرّ وما يسوء . سرني من كتابك انك طيب النفس ، قرير العين ، رضي البال ، ولستُ مثلك احسد الصديق على ما يتاح لهم من الخير . وسرني من كتابك هذه السذاجة الظاهرة ، التي تثير الابتسام ، وتبعث الضحك ، وتدعو الى التأمل والتفكير . وساءني من كتابك انك ماكر تتكلف السذاجة ، وغادر تتصنع الوفاء ، وخبيث الطوية تتعمل طيبة النفس ، وواثق بنفسك الى

ابعد حدود الثقة ، تظن انك وحدك الماهر الماكر ، وان غيرك من الذين تكتب اليهم أغرار محمقون ، لا يفهمون ما تضمر ، ولا يفطنون لما تريد .

وما اريد ان أغير من اخلاقك شيئاً ، فليس الى تغيير اخلاقك من سبيل ، ولو تغيرت اخلاقك لضقت بك ، وزهدت فيك ، ورغبت عنك ، فأنت كما انت تعجبني وترضيني ، لانك معقد النفس ، وانا احب النفوس المعقدة ، اجد اللذة كلّ اللذة في حلّ تعقيدها ، وكشف ما يصدر عنها من الرموز والالغاز . وقد احب النفوس السمحة البسيرة ، وأكلف بما يصدر عنها من الكتب الواضحة الصريحة ، التي تصدر عن القلوب ، لتصل الى القلوب ، والتي تملؤها العواطف الحادة ، ويفيض فيها الشعور الدقيق ، لتثير العواطف الحادة ، وتُفيض الشعور الدقيق ، وتتيح للقلوب والنفوس ، ان يتصل بعضها ببعض ، في غير مشقة ، ولا جهد ولا عناء ، ولكني على ذلك ، لا اكره النفوس الملتوية المعقدة ، التي تقول وتريد غير ما تقول ، وتعمل وتقصد الى غير ما تعمل ، وتدعو الناس الى ان يفكروا فيطيلوا التفكير ، والى ان يروّوا فيمعنوا في الروية ، ليفهموا ما يصدر عنها من قول او عمل . فعقّد نفسك ما وسعك تعقيدها ، والتوِ بقلبك ما استطعت الى الالتواء به سبيلًا ، واكتب اليّ عن هذه النفس المعقدة ، وعن هذا القلب الملتوي ، ما شئت من الرموز والالغاز ،

فاني موكل بحل الرموز وفك الالغاز .

وما اريد بعد هذا ان ابخل عليك بما طلبت اليّ من انباء هؤلاء النفر من اصدقائنا القدماء ، فهم على خير ما تحب لهم نفسك المعقدة ، وقلبك الملتوي ، وهم على شر ما تكره نفوسنا السمحة ، وقلوبنا المستقيمة ، من الاحوال . قد رفعتهم اعراض الحياة الى ارقى الدرجات ، وانحطت بهم حقائقها الى الدرك الاسفل من الضعة فهم سادة قادة ، يدبّرون ، ويقدّرون ، ويأمرون ، وينهون ، وينفعون ، ويضرون . وهم عبيد ارقاء ، يملكون من امور الناس كثيراً ، ولا يملكون من امور انفسهم شيئاً .

*

ولست ادري ، أأنت كما عرفتك ، محب للقراءة ، منوّع لما تقرأ ، ام انت قد شغلت بحياتك الجديدة ، عن القراءة وتنويعها ؟ ولست ادري أقرأت قصة ذلك الفتى الذي افاق من نومه ذات صباح ، فاذا هو قد مسخ حشرة بشعة قذرة كأبشع ما تكون الحشرات واقذرها ، ولكنه احتفظ على ذلك بحظ من عقل ، فهو يعرف ما صار اليه أمره ، ويشقى به شقاء بغيضاً ، وهو يلقى اهله بعد جهد ، فاذا هم محزونون عليه ، منكرون له ، ضائقون به ، وهو يلقى الناس الذين يُلمون بأهله بين حين وحين ، فاذا هم نافرون منه اشد النفور ، مبغضون لمنظره اشد البغض ، وهو يعلم هذا كله ، فتتأذى به نفسه ، ويشقى

به شقاء لا حد له ، وما تزال الخطوب تختلف عليه ، والاحداث تؤذيه في جسمه البشع ، ونفسه البائسة حتى يستأثر به الموت ذات يوم ، وقد هان على اهله ، وعلى غيرهم من الناس فلم يحفل به حافل ، ولم يلتفت اليه ملتفت ، وانما كان موته فرجاً من حرج ، وسعة من ضيق .

*

ان لم تكن قد قرأت هذه القصة فاقرأها ، واستحضر اثناء قراءتها شؤون مواطنيك عامة ، وشؤون هؤلاء النفر من الاصدقاء القدماء خاصة ، فسترى في كثير من الحزن إن كنت خيّراً ، وفي كثير من الرضى ان كنت شريراً ، ان كاتب هذه القصة كانما كان ينظر الى مواطنيك ، والى هؤلاء النفر من اصدقائك ، ويستمليهم قصته هذه البشعة المروعة ، فكل شيء في حياتنا يذكر بالمسخ ، ويلفت اليه ، ويدعو الى اطالة التفكير فيه . أتذكر ان وطنك العزيز ، قد كان فيما مضى ، وطناً مجيداً يهابه الاقوياء ، ويستظل به الضعفاء ، وطناً خصباً لا يؤثر نفسه بما أتيح له من الخصب ، وانما ينشر النعمة من حوله على غيره من الاوطان ، لا ينشر هذه النعمة المادية وحدها ، وانما ينشر معها النعمة المعنوية التي تغزو القلوب والعقول ، وتمد ضوء الحضارة الى أبعد الآماد ، أتذكر هذا كله ؟ فانظر الى وطنك الآن ، كيف انزوى وتضاءل ، وكيف هان امره على نفسه ، وعلى الناس ، وكيف أصبح أضعف من ان

يستقل بايسر شؤونه ، وينهض باهون أعبائه ، وكيف اصبح قليل الخطر ، هين الشأن ، ينظر اليه الناس ضيقين بـه ، او مشفقين عليه . أتراه قد مسخ كما مسخ ذلك الفتى ، ام تراه قد ظل كما كان مصدراً للخصب ، والقوة ، والمجد ، والبأس ، ولكن اهله قد مسخوا ، كما مسخ ذلك الفتى ، فأصبحوا لا يصلحون للعيش فيه ، واصبح هو لا يصلح لأيوائهم !

*

أتذكر هذا البيت الذي يرويه ابو العلاء في رسالة الغفران :

إعجبي أمنـا لصرف الليالي مُسخت أختنا سُكينة فاره

لقد كنا نضحك حين كنا نقرأ هذا البيت ، فأما الآن فلو قد عبرت الينا البحر وشاركت في الحياة التي نحياها ، لأنشدت هذا البيت غير ضاحك ولا باسم ، بل لأنشدت هذا البيت كما كان ينشده صاحبه ، في كثير من الحزن والعطف والرثاء ، لانه كان يعتقد عن يقين ان اخته سكينة ، قـد مسخت فأرة ، ولانك سترى كما ارى ، ان كثـيراً من أخواننا القدماء ، قد مسخوا جرذاناً او حيوانات اخرى ، ليست احسن حالاً من الجرذان . كل ما بينهم وبين هذه الجرذان من الفرق ، هو ان أجسامهم قد احتفظت بصورها القديمة ، فهي معتدلة القامة ، تمتد طولاً وعرضاً ، كما تمتـد أجسام الناس ، لم يصبها المسخ ، وانما اصاب ما يعيش فيها من النفوس ، وذلك اشد نكراً ، واعظم بلاء . واي شيء أبشع من ان تتقمص نفوس الجرذان اجسام الناس !

صنع الله لصديقنا فلان ! لقد كنا نراه ذكي القلب ، أبي النفس ، نافذ البصيرة ، مستقيم الخلق ، طموحاً الى الرفيع من الامر ، متنزهاً عن الدنيات ، خرج من بيئته القديمة المتواضعة ، فمضى امامه هادئاً مطمئناً ، ناظراً دائماً الى امام ، غير ملتفت الى وراء الا قليلاً ، كأنما كان يريد ان يتبين طول الطريق التي قطعها ، منذ فارق بيئته تلك ، وكأنما كان يريد ان يعتبر بقديمه ، ليستقبل جديده في غير غرور ولا كبرياء . وقد استقام له الامر ما مضى امامه هادئاً مطمئناً ، وكان خليقاً ان يستقيم له لو أتيح ان يمضي هادئاً مطمئناً ، ولكنه دفع في غير أناة ، واختطف في غير ريث ، ووثب الى أرقى مما كان يطيق ، فارتقى فجأة في غير اعداد ولا تمهيد ، وانتهى الى بيئة جديدة ، قد بعدت الآماد ، وتقطعت الاسباب ، بينها وبين بيئته القديمة ، فاصبح اشبه بالديك الذي يوضع موضع النسر ، ويراد على ان يحلق في اشد الاجواء ارتفاعاً ، وليس هو من هذا التحليق في شيء ، وانما قصاراه شرف متواضع ، يرقى اليه ليستقبل الصباح بالصياح ، ولينفش ريشه كلما أتيح له ان ينفشه . فاما ان يرقى في اجواز السماء فلا ، لان جناحيه أضعف من ان يبلغا به هذه المنازل المسرفة في العلوّ . ولو قد رأيته كما اراه ، ديكاً يسير سيرة النسر ، لضحكت قليلاً ، وبكيت كثيراً ، فقد كان خليقاً بمنزلة اخرى غير منزلة الديك ، وخلق آخر غير خلقه ، ولكن المنبتّ لا ارضاً قطع ولا ظهراً ابقى ، وقد انبتّ صاحبنا ، فلم

يقطع ارضاً ولم يُبق ظهراً .

*

وعفا الله عن صديقنا فلان ، لقد كنا نراه نقي النفس ، طاهر القلب ، صافي الطبع ، مصقول الضمير ، حريصاً اشد الحرص ، على ان يتبع الصراط المستقيم ، لا ينحرف عنه الى يمين او الى شمال ، مهما تكن الظروف والخطوب . وكنا نعجب بحبه للاستقامة ، وبغضه للاعوجاج ، وكنا نضربه للقصد مثلاً ، ونراه للاعتدال نموذجاً .

ولكن طريق الحياة لا تستقيم الا لاولي العزم من الناس ، او قل انها لا تستقيم لاحد ، وانما يُكرهها أولو العزم من الناس على ان تستقيم ، يقتحمون ما يقوم فيها من العقاب ، ويرتفعون عما يعترض فيها من دواعي المحنة والفتنة والفساد . ولم يكن صاحبنا من أولي العزم ، ولا من ذوي البصائر ، وانما كان رجلاً طيب القلب ، ومن طيبة القلب ما يكون ضعفاً . فقد مضى في الطريق المستقيمة ما استقامت له ، فلما انحرفت به انحرف معها ، ولم يستطع ان يمتنع عليها ، وقد نثرت الحياة امامه أشواكاً فاشفق منها ، ونثرت أمامه ازهاراً فتهالك عليها . نشرت أمامه الهول فخاف ، ونصبت امامه المغريات فاندفع ، وما هي الا ان تتصور نفسه بهذه الصورة المرنة اللينة ، التي لا تثبت لشيء ولا تمتنع على شيء ، وانما هي تجزع للنبأة اليسيرة وتستجيب لايسر المغريات ، تفرّ عند الفزع ، وتُقبل عند الطمع ، والغريب انها على

ذلك كله ترى في نفسها الخير ، وتؤمن لنفسها بالحكمة ، ومضاء العزم .

قيل لها ذلك فصدقته ، واطمأنت اليه ، ولم تنس إلا شيئاً واحداً ، وهو انها تَبِعَتْ احداث الحياة ، وتأثرت بها ، في غير مقاومة ، حتى اصبحت أشبه شيء بالكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، او تتركه يلهث . وأشهد ما رأيت هذين الصاحبين القديمين ، الا رجعت من فوري الى كتاب الحيوان للجاحظ ، فقرأت فيه طرفاً من احتجاج صاحب الكلب للكلب ، وطرفاً من احتجاج صاحب الديك للديك .

*

ورفق الله بصديقنا فلان ، أتذكره ؟ لقد كان في اول عهده بالشباب ، تقياً نقياً ، وسمحاً رضياً ، حلو العشرة ، عذب المنطق ، حسن المدخل ، سهل القياد . كنا نضحك من سلامة قلبه ، وبراءة نفسه ، وسذاجة عقله : كنا نغرّه فيغترّ ، وكنا نخدعه فينخدع ، وكنا نضحك من استجابته لكل دعاء ، وتصديقه لكل كلام . ولكن كنا نجهل ان من الحيات ما لا يعيش الا في كثبان الرمل المتهيلة ، التي لا تتلبد ، ولا تتجمد ، ولا تستطيع الاقدام ان تمضي فيها دون ان تغوص .

نعم وكنا نجهل ان مظهر صاحبنا ذاك ، لم يكن الا كثيباً من هذا الرمل السهل اللين ، الذي تغوص فيه الاقدام ، ويعبث به أيسر النسيم ، وان في هذا الكثيب

المهيل ، حية تهدأ فتحسن الهدوء ما جنّها الليل ، ثم تسعى فتحسن السعي ما اضاءت لها الشمس ، وهي في اثناء سعيها وهدوئها موفورة السم ، حديدة النـــاب ... تأزم فتحسن الأزم ، ولا يدنو منها احد ، إلا اصابه من سمهـــا حظ موفور .

وانه على ذلك لعذب اللفظ ، لين القول ، حلو الحديث ، خلاب جذاب ، يروق مظهره ، ويروع مخـــبره ، ويشقى به القريب منه ، والبعيد عنه .

*

حية وكلب وديك . هؤلاء هم اصدقاؤنا القدماء . فابكِ ان كنت خيّراً ، واضحَكْ ان كنت شريراً ، وارسم على ثغرك ابتسامة حزينة مرة ، ان كنت شيئاً بين الخـــير والشرير ، وثق على كل حـــال ، بان اصدقاءنا هؤلاء ، لم ينفردوا بما كتب عليهم من المسخ ، وانما هي محنة عامـة ، يمتحن الله بها هذا الوطن البائس في كثير من بنيه .

وقد تسأل عن مصدر هذه المحنة ، وأصل هذا البـلاء ، فاعلم انه الانتقال السريع ، يفسد بعض النفوس ، ويغير بعض الاخـــلاق ، ثم لا يلبث ان يمضي بخيره وشره ، وان يرد الشعوب الى حياة ملائمة لطبائع الاشياء ، يكثر فيهـا الناس الذين يتقمصون اجسام الناس ، ويقل فيهـــا الحيوان الذي يتصور في صورة الانسان .

اما بعد ، فان في مدينتك الجميلة حدائق للحيوان ،

تستطيع ان تنزه فيها عينك ، وعقلك ، ولكن حدائقك كلها ، على كثرة ما فيها من الغرائب والطرائف ، ونوادر الانواع ، لن تقدم اليك كلاباً ، وديكة ، وحيات ، في صور النـــاس ، فاذا لم يَشُقْ نفسَك وطنك العزيز ، ولم يدفعك الشوق الى الرغبة في عبور البحر ، فلا أقل من ان يدفعك الى عبور البحر ما يكتظ به وطنك من هذه الطرائف والغرائب والنوادر التي تمرح على ضفاف النيل ، وتستظل بظل الاهرام .

أمقبلٌ انت لتشهد من قريب ، أم قانع أنت بما يأتيك من بعيد . . ؟

صرعى

•

أتذكر قول زياد رحمه الله في خطبته المشهورة لأهل البصرة : « وايمُ الله ان لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرىء منكم ان يكون من صرعاي » ؟

فان هذه الجملة الخالدة لم يعرب بها زياد عن ذات نفسه ، ولا عما كان بينه وبين اهل العراق من صلة ، ولا عما كان قد رسم لحكمه من سياسة عنيفة ، ولا عما كان قد فرض على نفسه من الحزم والعزم في تدبير امور الناس وحملهم على الجادة راضين او كارهين . لم يعرب زياد بهذه الجملة عن هذا كله فحسب ، وانما اعرب بها عن شيء اعمّ واشمل من سلطانه ، وابقى واخلد من سيرته ، عن شيء يتصل بحياة الناس جميعاً ، ويؤثر في اعمالهم جميعاً ، بل في آمالهم

جميعاً ، عن شيء وجد منذ وجد الانسان ، وسيبقى ما بقي الانسان ، ولن يزول حتى يرث الله الارض ومن عليها . عبّر زياد عن هذا الغرور الذي يدفع الناس الى ان يعملوا ، ويدفع الناس الى ان يأملوا ويفسدوا على الناس اعمالهم وآمالهم ، ويردّيهم آخر الامر في هوة عميقة غير ذات قرار من البؤس واليأس والقنوط .

لست ادري ايها استعار من صاحبه هذه الجملة الخالدة التي تصور الموعظة البالغة . أترى ان زياداً قد استعارها من الغرور الذي كان يلقيها على الناس وظل يلقيها على الناس في كل لغة وفي كل بيئة وفي كل عصر ، وفي كل جيل ؟ وأية غرابة في ذلك فالخطباء المتفوقون ، والكتاب المبرزون ، والشعراء الملهمون ، تتصل اسبابهم باسباب المعاني الخالدة ، فيستعيرون منها ما يشاءون ويستهدون منها ما تنطلق به السنتهم وتجري به اقلامهم ، فيبقى بقاء الدهر ، ويتصل اتصال الزمان ، ام ترى ان الغرور كان يعظ الناس كما يستطيع ، ثم اتيحت له هذه الجملة الخالدة من خطبة زياد فاتخذها لنفسه رمزاً ، وساق فيها موعظته الخالدة الى القلوب والنفوس والعقول ...

ومهما يكن من شيء فلم يعرب احد عن حديث الغرور الى نفوس الناس كما اعرب عنه زياد . والغريب ان الناس استمعوا لزياد فامتلأت قلوبهم خوفاً وروعاً واشفاقاً . واشفق كل امرىء منهم ان يكون من صرعى زياد ،

ولكنها ايام او اسابيع او شهور تمضي واذا الناس ينسون الخوف فيما ينسون ، ويجهلون الروع فيما يجهلون ، ويعرضون عن الاشفاق فيما يعرضون عنه ، واذا هم يسرعون الى الهول او يسرع الهول اليهم ، واذا صرعى زياد يكثرون ، تمتلىء ببعضهم السجون ، وتمتلىء ببعضهم القبور ، لان الناس لم يكادوا يسمعون حديث زياد حتى نسوه . وهم كذلك يسمعون حديث الغرور الى قلوبهم ونفوسهم وعقولهم ، ثم ينسون هذا الحديث . فيسرعون الى الخطر او يسرع الخطر اليهم ، ويتساقطون في الشر كما يتساقط الفراش في النار ، ويصبحون من صرعى الغرور وقد حذرهم الغرور مع ذلك ان يكونوا من صرعاه . ذلك ان الغرور يتحدث الى الناس حديثين مختلفين فيما بينهما أشد الاختلاف . يسوق احدهما الى ما في الناس من تهالك وضعف ، والى ما فيهم من طمع وطموح ، والى ما فيهم من حب للطيبات ، وايثار للعافية ، ونزوع الى ما يرضي الحاجة ويقنع اللذة ، ويتملق الحس ويخادع الشعور ، ويخدع العقل عن حقائق الاشياء .

يسوقه الى استعدادهم للاستجابة للاغراء حين يوجه اليهم الاغراء . يخيل اليهم ان الحياة قصيرة فيجب ان تنتهز ، وانها انما منحت للناس ليحيوها هادئة ناعمة ، ولينة باسمة ، ومشرقة راضية تتحقق فيها الآمال وترضى فيها الكبرياء .

ويسوق احدهما الاخر الى ما في نفوس الناس من قوة وجلد وصبر على المكروه وثبات للخطوب ، وتعمق للاشياء

ونفوذ الى حقائقها وايمان بان الحياة لم تخلق عبثاً ولم تمنح للناس سدى ، وبان الفرد لم يخلق لنفسه وانما خلق لمواطنيه ، وان الامة لم تخلق لنفسها وانما خلقت للانسانية ، وأن الحياة قصيرة يجب ان تنتهز لتحقيق النفع ، وتعميم الخير ، وترقية الحضارة ، وإقرار العدل . ذلك احرى ان يمد قصيرها ، ويصل منقطعها ، ويجعل زائلها خالداً ، وباطلها حقا ، والمنقضي منها متصلاً .

بهذين الحديثين يتحدث الغرور الى الناس دائماً ، يعدهم ويمنيهم ، ويطمعهم ويغريهم ، ثم يعظهم ويحذرهم ويدعوهم الى الروية والاعتبار .

فاما اكثر الناس فتستخفهم الوعود ، وتزدهيهم الاماني ، وتذهب باحلامهم الاطماع ، ويعبث بعقولهم الاغراء ، واذا هم من صرعى الغرور . واما اقلهم او الاقلون الاقلون من اقلهم فلا يستجيبون للعدة الكاذبة التي تمر بها من دونهم رياح الصيف كما يقول الشاعر القديم ، وانما يملكون على نفوسهم امرها ، ويصبرونها على ما تحب وعلى ما تكره ، ويوجهونها الى ما يسرت له من الخير فينفعون وينتفعون وينجون من عبث الغرور بهم وتسلطه عليهم ، ويأمنون ان يكونوا من صرعاه .

وابتسم يا سيدي ما شئت ان تبتسم ، واغرق في الضحك ما طاب لك الاغراق في الضحك ، وسل نفسك او لا تسلها عن هذا الحديث ... ما مصدره وما غايته وما معناه ؟

فليس لهذا الحديث مصدر الا ما انت فيه ، وليس لهـذا الحديث غاية ، إلا ما أنت فيه ، وليس لهذا الحديث معنى إلا ما انت فيه . والناس يهنئون اصدقاءهم كما يستطيعون ، ويهدون اليهم من التحية ما يملكون . فهذه هي التهنئة التي استطعت ان اسوقها اليك ، وهذه هي التحية التي املكُ ان اعرضها عليك ، فاقبلها ان شئت وارفضها ان احببت . فالله لا يكلف نفسا الا وسعها ، والله لا يحمل الناس على ما لا يطيقون .

أتذكر تلك الأيام البعيدة المسرفة في البعد حتى كاد ينساها الزمان ، القريبة المسرفة في القرب حتى ما أستقبل الصباح ولا استقبل المساء ولا استقبل عملاً من الأعمال بينهما إلا كنت لها ذاكراً ، وفيها مفكراً ، وبها حفياً ؟ لقد بعدت تلك الايام منك حتى كأنها لم تمر بك او كأنك لم تمر بها ، وحتى كأنك تُخلق في كل يوم خلقاً جديداً ينسيك اليوم الذي قبله ، كما ينسى الناس عادة ما يمكن ان يكون قد اختلف على نفوسهم من الاحداث والخطوب قبل ان يدفعوا الى هـذه الحياة . ولقد قربت هذه الايام مني حتى كأني لم اخلق الا لأعيش فيها ، وكأنها لم تخلق إلا لتأخذ عليّ طرق الحياة فلا استطيع ان اخرج منها ولا تستطيع ان تنأى عني ، وانما وقفت علي ووقفت عليها ، وقيـل للزمن ألا يتقدم حتى لا اتجاوزها وألا يتأخر حتى لا ارد عنها ، فأنا سجينها ، وهي سجينتي ، قد اكرهنا على ان نصطحب ، فلن اجد منها مخرجاً ، ولن

تستطيع عني انصرافاً .

أتذكر تلك الايام ؟ .. أنفق شيئاً من الجهد لعلك تستحضر منها ظلالاً ضئيلة ان أمكن ان تكون للأيام ظلال . انفق شيئاً من الجهد حين تخلو الى نفسك ، ان استطعت ان تخلو الى نفسك ، واستحضر بعض تلك الايام التي كنا نستقبلها باسمين لها ، وكانت تستقبلنا باسمة لنا ، وكان في ابتسامنا وابتسامها هدوء مطمئن يملأ القلوب ثقة ورضى وأمناً . لم نكن نطمع في شيء إلا ان نعلم في كل يوم يُقبل علينا اكثر مما كنا نعلم في كل يوم يدبر عنا .

وكان ذلك الينا وحدنا لا يستطيع احد ان يردنا عنه ، او ان يرده عنا . انما هو حب للمعرفة ، واقبال عليها ، والحاح في طلبها ، واستمتاع بهذا الالحاح ، وتزيّد من هذا الاستمتاع .

*

أتذكر تلك الايام ؟ ... لقد كانت لنا فيها آمال محببة الى نفوسنا ، أثيرة في قلوبنا ، متواضعة تواضع العلم ، متعالية تعالي العلم ، لا يستطيع احد ان يصدنا عنها ، ولا يستطيع احد أن يصدها عنا . لم نكن نريد الا ان نهتدي الى الحق ونهدي اليه ، لم نكن نريد الا ان نصل الى الخير ونوصل اليه ، لم نكن نريد الا ان نملأ قلوبنا علماً ان أمكن ان تمتلىء القلوب ، ثم ننشر العلم من حولنا ما وجدنا الى نشره سبيلاً . كانت امامنا من الجهل والغيّ والسخف صورة بشعة منكرة ، ولكنها لم تكن تخيفنا ولا تروعنا وانما

كانت تدعونا الى نفسها ، لا لنحبها بل لنبغضها ، لا لنبقيها بل لنلغيها .

أتذكر تلك الايام ؟ ... لقد كانت قلوبنا فيها نقية نقاء الشمس ، رخية رخاء النسيم ، عذبة عذوبة الماء الذي صفا ، فلا يشوبه كدر ولا يفسده رنق . أتذكر تلك الايام ؟ لقد كانت آمالنا نقية نقاء قلوبنا ، رخية رخاء طباعنا ، صافية صفاء أمزجتنا . في تلك الايام البعيدة القريبة آمنت نفوسنا ، لان الاصلاح وحده هو الذي سيستأثر بها وبما تملك من قوة وجهد ، ومن غير القوة والجهد مما تملك النفوس .

في تلك الايام ساق الينا الغرور حديثيه . ساق الينا حديث الاغراء فأعرضنا عنه اعراضاً ، وساق الينا حديث الاباء فأقبلنا عليه اقبالاً . في تلك الايام ثبتنا للمكروه وصبرنا على الشر ، وصُبّ علينا الاذى فلم يبلغ منا ، واطاف بنا الكيد فلم يصل الينا ، وقامت امامنا العقاب فلم تردنا عن الغاية ، ولم تصدنا عن الطريق :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلامُ

ما اكثر ما قرأنا هذا البيت من شعر ، وما أكثر ما تمثلنا به حين كنا نسمع احاديث بعض الناس الذين كانوا يستجيبون للغرور فيصبحون من صرعاه . واقسم ما خطر لي قط اني سأتمثل بهذا البيت ذات يوم حين اقرأ

الصحف مصبحاً او ممسياً ، فاذا لساني ينطق ، وما اردت انطاقه ، بقول الأعشى :

شتان ما يومي على كورها
ويوم حيان أخي جابر

فرحم الله زياداً وتجاوز له عن خطيئته . اقدّرَ حين ألقى خطبته تلك انه كان يعرب أحسن الاعراب عن حديث الغرور الى اولي العزم من الناس حين قال : « وايم الله ان لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرىء منكم ان يكون من صرعاي » !

نفوسٌ للبيع

•

لا تَرَعْ يا سيدي لا تَرع ، فليس في امر صديقك ما يدعو الى الروع . لقد وثقت به كما لم تثق باحد ، واعتمدت عليه كما لم تعتمد على احد ، واطمأننت اليه كما لم تطمئن الى انسان . ثم نظرت ذات يوم فاذا ثقتك وهم ، واذا اعتمادك هباء ، واذا اطمئنانك غرور ، واذا صديقك الذي أصفيته حبك ، واختصصته بودك ، واظهرته على سرك ، واعددته لكل مايعرض من امرك ، يمكر بك ويكيد لك ويتخذك وسيلة الى تحقيق المنافع ، وبلوغ الآراب .

وماذا تنكر من ذلك وهو شيء يجري في كل يوم ، ويحدث في كل وقت ، صوّرته الآداب القديمة فأحسنت تصويره ، وعرضته الآداب الحديثة فاحسنت عرضه ، وأنت

رجـــل مثقف قد قرأت من غير شك ما كتب الكتاب ، ونظم الشعراء في الوفاء القليل والغدر الكثير ، وفي الأخ الذي يمنحك وده ما احتـــاج اليك ، وإعراضه ما استغنى عنك ، وفي الصديق الذي :

يعطيك من طرف اللسان حلاوة

ويروغ منـك كما يروغ الثعلبُ

وفي الوليّ الذي يواتيك ما استقامت لك الحياة ، ويجافيك حين تُعرض عنك الدنيـا ، وفي الصاحب الذي يرضى عنك مـــا رضي عنك السلطان ، ويسخط عليك مـــا سخط السلطان . كل هذه اوليات قد قرأتها في الكتب ، وسمعتها في حجرات الدرس ، وتحدثت بها الى الناس وتحدث الناس بها اليك ، ثم ها انت ذا ترتاع لانك جربت ما جربه الناس من قبلك ومن حولك ، وبلوت في ذات نفسك ما بـلاه الناس في كل عصر وفي كل جيل . أتعرف ما يدل عليـه هذا الروع الذي يملأ قلبك ، وهذا الحزن الذي يغمر نفسك ، وهذا البؤس الذي يفعم ضميرك ؟ انما يدل هذا كله على شيء واحد يسير اوّليّ لا غرابة فيه ولا مشقة في فهمه ، يدل على انك تقرأ الكتب وتشهد الاحداث وترى العبر والمواعظ ، فتزعم لنفسك وللناس انك تنتفع بمـــا تقرأ وما ترى وما تشهد . وتخيل الى نفسك والى الناس انك تستفيد مما امتلأت به الحياة من التجارب ، على حين انك لم تنتفع ، ولم تستفد ، ولم تصل الموعظة الى قلبك ، ولم تبلغ العبرة دخيلة نفسك ،

ولم تؤثر التجربة في ضميرك .

فأنت تؤمن بهذا كله ايماناً ظاهراً لا عمق له ولا استقرار ، حتى اذا دهمتك الاحـــداث وألحت عليك الخطوب وجدتك طفلاً قليل التجربة ضئيل الاختبار ، فروّعتك كما يراع الطفل لأيسر ما يعرض له من الوهم .

*

فكّر كم شيعت من جنازة ، وكم جزعت لفقد صاحب او اخ او صديق ، وكم استيقنت فيما بينك وبين نفسك ، وفيما بينك وبين الناس ان الحياة باطل وان الدنيا غرور ، وان الآمـــال لعب وان الاماني كذب ؟ ثم فكر كيف انجلت عنك الغمرات ، وكيف استقبلت ايامك راضياً عنها ، باسماً لها ، مبتهجاً بها ، مجاهداً في سبيل ما تبتغي من المنافع والمآرب كانك لم تشيع جنازة ، ولم تفقد صديقاً ، ولم تتعظ بموت ، ولم تستيقن ان الحياة وما فيها باطل وغرور .

لا ترع يا سيدي ، لا ترع ، ان فقد الصديق حين يختطفه الموت الى غير رجعة يوئسك من الحياة حيناً يقصر او يطول ، ولكنه لا يلبث ان يرد اليك الأمل ، ويملأ قلبك بالاماني ويدفعك الى العمل ، ويملأ نفسك نشاطاً ومرحاً ، فكيف بما يعرض لك من فقد الصديق الحي الذي لم يختطفه الموت الى غير رجعة ، وانما اختطفته المنفعة الى رجعة قريبة او بعيدة . انه يُعرض عنك اليوم فقد يقبل عليك غداً ، انه يمكر بك الآن فقد يمكر بعدوك بعد حين ، انه يأتمر بك ليؤذيك في

هذه الظروف فقد يأتمر لك لينفعك في ظروف أخرى .

*

خذ الحياة كما هي ، وخذ الناس كما هم ، وقدّر ان مما يلائم طبائع الاشياء ان يموت الناس وهم احياء ، وان يحيا الناس وهم اموات . انك تأسى لما فقدت من صديقك هذا الذي تنكّر لك وائتمر بك ، وألّب عليك ، ولكنك تنعم بهذه الذكرى التي تستبقي لك اولئك الاصدقاء الذين اختطفهم الموت فتولوا عنك ، لم يمكروا بك ولم يكيدوا لك ولم يؤلبوا عليك .

قوم يموتون وهم احياء فتعزّ عنهم واصبر عليهم ، فقد ترد اليهم الحياة ذات يوم ، وقوم يحيون وهم اموات فاذكرهم اجمل الذكر ، واستبق حبهم في قلبك ، وودهم في ضميرك ، وامنحهم بين حين وحين كلمة خير ودمعة وفاء .

لا ترع يا سيدي ، لا ترع فان هذا الامر الذي يؤذيك ويضنيك ويشق عليك لا يجري عليك وحدك ، وانما يجري على غيرك من الناس . انظر من حولك فسترى نفوساً تعرض للبيع وأخلاقاً تعرض للمساومة ، منها ما يباع بثمن بخس ، ومنها ما يباع بثمن لا بأس به ، ولكنها كلها تباع على كل حال .

وما الذي تُنكر من ذلك وحياة الناس رهينة بمنافعهم ومآربهم ، وحضارة الناس شيء مكتسب ليس من الضروري ان يمتزج بدمائهم ويجري في عروقهم ، ويصبح لهم مزاجاً

وطبعاً ، وانما هو شيء متكلف لا يؤمن به ولا يؤمن له الا الأقلون . فأما الاكثرون فيتخذونه وسيلة يتقي بها بعضهم شر بعض ، وقد يبتغي به بعضهم شر بعض .

*

فكر ان هذه الازمات التي تلح على الناس منذ اول هذا القرن تلقي عليهم دروساً فيها الخوف ، وفيها الاغراء ، فيها اليأس وفيها الرجاء ، فيها انتهاز الفرص وفيها الثبات على الخلق الكريم .

ان هذه الازمات تعلم الناس ان الحياة قصيرة هينة رخيصة ، فمن الخير انتهازها والانتفاع بها الى اقصى آماد الانتفاع . هذه الملايين التي ارسلت الى الموت ابتغاء العدوان ، وهذه الملايين التي ارسلت الى الموت ابتغاء دفع العدوان ، وهذه الملايين التي عُذبت في معتقلات الاسر ، وهذه الملايين التي صُبّ الموت والعذاب عليها صباً لا لشيء الا لارضاء حاجة الانسان الى البغي والاثم واللذة البشعة ، كل هذه الملايين قد اقامت الدليل للناس على ان الحياة قصيرة هينة رخيصة ، وأقرت في نفوس كثير من الناس ان الحزم انما هو في انتهاز الفرصة واقتضاء المنفعة والاستمتاع باللذة ، مهما تكن النتائج ومهما تكن الظروف . فما الذي تُنكر من ان يدعو هذا كله الى إهدار القيم التي الفتها ، وضياع المقاييس التي نشأتَ عليها ؟ وما الذي تنكر من ان يتحول عنك الصديق لأنهم لا يجدون عندك منفعة ولا مأربا ، او لأنهم

يجدون عند غيرك من المنافع والمآرب أكثر مما يجدون عندك ؟

*

لا ترع يا سيدي ، لا ترع ، فليس في الأمر ما يدعو الى الروع . وانما انت خليق ان تختار بين اثنتين ، وان يكون اختيارك عن حزم وبصيرة ، وعن روية وتفكير ، وعن اناة وتحفظ واحتياط . فاما ان تستبقي ما نشأت عليه من خلق ، وما فطرت عليه من مزاج ، فتمتنع على الغواية ، وتقاوم الاثم ، وتصون نفسك من ان تكون سلعة تعرض للبيع والشراء ، وتعصم أخلاقك من ان تكون موضوعاً للمساومة ، وما يكون في المساومة من ارتفاع الاثمان وهبوطها ، واذن فأيسر ما يجب عليك اذا اخترت هذه الخصلة ، ان ترضى بالقليل ، وتقنع باليسير ، وتروض نفسك على غدر الصديق وخيانة الاخوان ، وتحوّل الرفاق وتنكّر الخلان . تلقى ذلك باسماً له وساخراً منه ان كنت من اولي العزائم الماضية والهمم العالية ، وتلقى ذلك شقياً به محزوناً له ، ولكنك تحتمله على كل حال ، ان كنت من الصادقين الذين لم ترتفع نفوسهم الى منازل النابغين والافذاذ . واما ان تدور مع الزمن وتساير الحياة ، وتنعم حين تساق اليك ، وتعرض نفسك للبيع حين تسنح الفرصة لك ، وتختطف اللذة حين تساق اليك وتعرض نفسك للبيع فتبيعها بالثمن الغالي ان اتيح لك ، وبالثمن الرخيص ان لم تجد بداً من قبول

الثمن الرخيص .

*

لا ترع يا سيدي ، لا ترع ، فليس في الامر ما يدعو الى الروع . انك قد اخترت الخصلة الاولى الى الآن فلم تزدهك المنافع ، ولم تستخفك اللذات ، ولم يستهوك السلطان ، ولم تبع نفسك مع البائعين . وقد لقيت في ذلك كثيراً من الاذى ، وصبرت نفسك في ذلك على كثير من المكروه ، ورأيت أصدقاءك من حولك تتخطفهم المنافع ، ويصرعهم حب الشهوات .

ثم انك تنظر في كل يوم فترى نفسك تسرع الى الوحدة او تسرع الوحدة اليها ، وترى نفسك مقبلاً على العزلة ، ممعناً فيها ، إما لان الناس من حولك يضيقون بتحفظك وتزمتك فينصرفون عنك ، واما لانك تضيق بتهالك الناس وتهافتهم وتساقطهم على المنافع الوضيعة ، كما يتساقط الذباب على العسل أو كما تتساقط الفراش في النار ، فتنصرف عنهم ، وتنشد قول الشاعر القديم :

حيّ الحمول بجانب الرمل
اذ لا يلائم شكلها شكلي

*

نعم يا سيدي ، انت قد آثرت الخصلة الاولى ، فلم تعرض نفسك للبيع ولم تطرح اخلاقك للمساومة . وأنت ترى النفوس من حولك تباع ، وترى الاخلاق من حولك

تُعرض للمساومة ؛ فيؤذيك ما ترى ، ويداخلك الشك فيما اخترت لنفسك من سيرة وما سلكت بها من طريق .

وما ارى الا ان هذا الروع الذي يملأ اليوم قلبك ويفسد عليك أمرك ، لان صديقك هذا قد تحوّل عنك وجزاك بالوفاء خيانة وبالبر مكراً وكيداً ، ليظفر بمنصب خطير يغلّ عليه مالاً لم يكن يحلم بأقله ، ما ارى الا ان هذا الروع مظهر من مظاهر الشك الذي يخامر نفسك ويداخل ضميرك . فأنت حائر لا تدري أمخطىء أنت ام مصيب ؟ وأنت تسأل نفسك ، ولولا الحياء لسألت الناس ، أعاقل أنت ام مجنون ؟

ان المنافع تسعى اليك ، وان الآمال تتراءى لك ، خلابةً جذابة براقة ، وانك ترى الناس من حولك يسعون الى المنافع ويتهالكون على الامال ، وانك تهم ان تفعل كما يفعلون ثم ترد نفسك الى الحزم وتأبى عليها الهوان . وما اكره لك هذا الروع ، وما اشفق عليك من هذا الشك ، فلست احب للرجل الكريم ان تكون كرامته عادة مألوفة وشيئاً يسيراً لا مشقة فيه ، وانما احب له ان يكسب كرامته كسباً ويأخذها غِلاباً ، ويفرضها على الناس فرضاً ، وان يعرض له الشك في كل يوم ، فلا يبلغ منه شيئاً ، وان يلح عليه الاغراء في كل ساعة فلا يُلين له قناة ؛ فهو ناظرٌ لنفسه في كل لحظة ومدافع عنها في كل حين . فجدّد الاختيار لنفسك بين الحياة السهلة

اليسيرة الحلوة الموانية ، وبين الحياة الصعبة العسيرة المرة المجافية .

فان اخترت الثانية فنعم الصديق ، وان اخترت الاولى فثق باني لن أروّع لفقدك ، كما روعت انت لفقد صديقك ، ذلك لاني وطنت نفسي على موت الاصدقاء وهم احياء ، وعلى حياة الاصدقاء وهم اموات ، ولاني أنشد نفسي من حين الى حين هذا الشعر الذي رد معاوية عن الانهزام يوم صفين :

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي او تستريحي

كما انت

•

كما أنت ايها الصديق الكريم ، لا تقم إن كنت قاعداً ، ولا تقعد إن كنت قائماً ، ولا تتحول عن مكانك الى يمين او شمال ، ولا ترجع الى وراء ، وانما امضِ الى امام إن احببت المضي ، فأنما هو كلام يقال في كل عصر وفي كل جيل ... قلناه حين كنا شباباً فلم نغير مما كان حولنا شيئاً بالقول ، ويقوله الشباب لنا الآن فلا يغيرون مما حولهم شيئاً بالقول ، وسيبلغون في يوم من الايام ما بلغنا من السن ، وسيصلون الى ما وصلنا اليه من المنازل ، وسيقول لهم ابناؤهم واحفادهم مثل ما يقولون لنا الآن ، ومثل ما قلنا نحن لآبائنا واجدادنا من قبل ، فلا يغيرون شيئاً بالقول كما لم نغير نحن شيئاً ، لان تغيير الاشياء لا يكون

بالكلام الذي يقال عن اخلاص او عن تكلف ، وعن تفكير او عن اندفاع ، وانما يكون بالعمل الذي ينقل الاشياء من طور الى طور ، ويضعها حيث يجب ان تكون .

كما أنت اذن ايها الصديق الكريم ، لا تغيّر من حياتك ولا من سيرتك شيئاً ، بل لا تغير من رأيك في الاحياء والاشياء إلا أن يدعوك التفكير وتضطرك الاحداث وطبيعة الحياة الى أن تغير من رأيك قليلاً او كثيراً .

*

كما أنت لا تُزل عن ثغرك هذه الابتسامة السمحة التي الفتَ ان تلقى بها الناس ، وما يختلف عليهم من الاطوار وما يلم بهم من الخطوب ، ولا تلق عن وجهك هذا القناع المشرق الوضاء الذي يزيده العزم اشراقاً والحزم وضاءة ، والذي تلقى به المصاعب مجاهداً لها حتى تقهرها وتظهر عليها .

ما اكثر ما كان يقال لك مما تحب ومما لا تحب ، وما اكثر ما كنت تسمع لهذا وذاك ، فلا تنحرف عن طريقك حتى تبلغ الغاية ؛ ولا تنصرف عما صممت عليه حتى تنتهي منه الى ما كنت تريد ؛ فما ينبغي ان تنال الالفاظ منك في هذه الايام ما لم تكن تستطيع ان تناله فيما مضى من الايام ؛ إلا ان يكون الضعف قد اصابك والهرم قد بلغ منك ؛ فأنت حينئذ مضطر الى ان تريح وتستريح ؛ لا لأن هؤلاء النفر او أولئك النفر تقدموا اليك في أن

تريح وتستريح ، بل لأن طبيعة الحياة نفسها هي التي تفرض عليك ان تريح وتستريح .

متى رأيت الشباب يحبون المهل ويصطنعون الاناة ويأخذون أنفسهم بالرفق ؟ ذلك شيء لا يوافق طبائعهم ولا يلائم غرائزهم ولا يتأتى لأمزجتهم .

*

وقد علمنا ارسطاطليس ، منذ اربعة وعشرين قرناً ، أن الاندفاع اخص خصائص الشباب ، والخير كل الخير في أن يندفع الشباب ولا يستأنوا ، وفي ان يتحمسوا ولا يفتروا ، وفي ان يغامروا ولا يحاذروا ، وفي ان يتعجلوا ولا يتمهلوا ، بغير هذا لا تستقيم للناس حياتهم ولا تصلح لهم امورهم . وقد أنبأنا بيريكليس منذ خمسة وعشرين قرناً بان الشباب ربيع الحياة ، ومتى رأيت الربيع يستأني في نشر جماله على الارض ؟ ومتى رأيت الربيع يتمهل في اشاعة الحياة والحرارة والنشاط في الطبيعة ؟ ومتى رأيت زهر الربيع يتردد قبل ان يتفتح ؟ ومتى رأيت الاغصان الخضر تؤامر نفسها قبل ان تطاوع النسيم حين يريد ان يعابثها فتعابثه ، وان يميل بها فتميل معه حيث يميل ؟ انما يقدم الربيع فجأة على رغم ما يوقت له من المواعيد ، في المراصد والتقاويم . تصبح ذات يوم او تمسي ذات يوم ، فاذا الحياة قد اندفعت في هذه القطعة من الروض فملأتها قوة وفتوة ونمواً ، ونشرت عليها زينة وجمالاً لم تكن تقدرهما قبل ذلك بايام ، بل

قبل ذلك بساعات . كذلك الحياة كلها تندفع في ابان الاندفاع وتستأني في إبان الاناة ، ثم يسعى اليها الفتور او تسعى هي الى الفتور فيدركها الذواء الذي لا يُبقي منها إلا ذماء يسيراً ثم يصيبها الذبول ، ثم يلم بها الحدث الاعظم الذي يجعلها هشيماً تذروه الرياح . ونحن نرى ذلك كله يجري على سجيته ويمضي على اذلاله ، لا نستطيع ان نغير قوانينه ولا ان نقدم او نؤخر شيئاً منه عن موعده المقسوم له . ونحن نبتهج للربيع حين يقبل ، ونكتئب للصيف حين يُلمّ ، ونبتئس للخريف حين ينثر من حولنا الاوراق ، ونستخفي من الشتاء حين يملأ الجو والارض من حولنا برداً تنكمش له النفوس وتقشعر له الاجسام ، ولكن ابتهاجنا واكتئابنا وابتئاسنا واستخفاءنا لا يغير من مجرى الفصول شيئاً . ولو استمع الصيف للربيع لما اقبل ، ولو استمع الربيع للشتاء لما ملأ الارض بهجة وجمالا . فدع الشباب وما يقولون ، وامض انت لما يُسرت له حتى تضطرك الحياة الى الهدوء ثم الى الوقوف ، ثم الى السكون والهمود .

كما انت ايها الصديق الكريم ، لا تتحول عن طريقك فان الحياة لم تحصر في طريق واحدة ضيقة ، وانما انبسطت امامها طرق لا تحصى ، وهي قادرة على ان تسع الاحياء جميعاً . والحياة العقلية خاصة اوسع جداً مما يظن المثقفون والمفكرون والمنتجون في العلم والادب والفن . وقد أفهم

ان يقول حزب سياسي لحزب سياسي : تنحّ لي عن طريق الحكم وانزل عن مناصبه ، فانا أحق بها وأقدر على تدبيرها منك ، ولكن الحكم ليس هو الحياة ، وانما هو فرع ضئيل جداً من فروع الحياة ، ولعله ان يكون اشدها ضآلة واهونها شأناً واقلها خطراً ، ولكن الشيء الذي لم افهمه ولن افهمه ، لان احداً لم يستطع قط ان يفهمه ، هو ان يقول جيل من المفكرين لجيل آخر من المفكرين : كفوا عقولكم عن التفكير والانتاج لاستطيع انا ان افكر وانتج ، وان يقول جيل من الفنانين لجيل من الفنانين : كفوا عيونكم عن ان ترى لانها قد رأت ما يكفيها ، وكفوا قلوبكم عن ان تشعر لانها قد شعرت بما اطاقت ان تشعر به ، وكفوا ملكاتكم عن ان تنتج لانها قد انتجت ما وسعها الانتاج ، وافسحوا لي حتى استأثر من دونكم باحساس الجمال والشعور بدقائقه وتصويره ، كما استطيع ان اصوره او كما احب ان اصوره . هذا شيء لم افهمه قط ولن افهمه آخر الدهر ، فليس الى فهمه من سبيل . فالكون وما فيه من حقائق ودقائق ، ومن جمال وقبح ، لم يخلق لجيل من الناس دون جيل ، ولم يوقف على فريق منهم دون فريق ، وهو لا يتحدث ولا ينبغي ان يتحدث الى بيئة منهم دون بيئة ، ولا ان يظهر روائعه للشيوخ من دون الشباب ولا للشباب من دون الشيوخ . وانما هو يتحدث الى من يريد ، او الى من يستطيع ان يسمع له ويفهم عنه ، وهو يوحي

الى من يريد او يستطيع ان يتلقى عنه الوحي . وهو يعرض جماله وقبحه لمن يريد او يستطيع ان يرى الجمال فيقبل عليه ويدعو اليه ، وان يرى القبح فيصد عنه ويزهد فيه .

*

انما الكون آية لمن كان له قلب .. او القى السمع وهو شهيد . والله لم يخلق القلوب في صدور الشيوخ وحدهم ، ولا في صدور الشباب وحدهم ، ولم يجعل السمع في آذان هؤلاء من دون اولئك . او اولئك من دون هؤلاء . وما اعرف شيئاً يستطيع ان يسع الناس جميعاً كهذه الاشياء التي تتصل بالعقول والقلوب ، وما تنتج من آيات المعرفة والفن . والناس يزدحمون ويتدافعون بالايدي والمناكب ويؤذي بعضهم بعضاً بهذا الازدحام والتدافع حول مناصب الحكم ومصادر الرزق وموارد المال ، فجائز ان يقول فريق منهم لفريق : دع لي مكانك وافسح لي الطريق ، وجائز ان يكره فريق منهم فريقاً على ان يدع له مكانه ويفسح له الطريق ، فاما العلم والادب والفلسفة والفن فانها ميسرة لمن ارادها واستطاع السبيل اليها ، وكان لها ميسراً ، وبها موكلا ، وعليها قادراً ، فلا سبيل الى الازدحام عليها ولا التدافع اليها بالايدي والمناكب ، لانها تسع الناس جميعاً .

*

واذن فما قول الشباب للشيوخ افسحوا لنا الطريق الى

الادب ، او افسحوا لنا الطريق الى العلم ، او افسحوا لنا الطريق إلى الفن ؟ فان الشيوخ فيما اعلم لا يصدون الشباب عن ادب او علم او فن ، وانما يدعونهم اليه دعاء فيه كثير من الالحاح . اليس من الممكن ان يكون الشيء الذي ينفسه الشباب على الشيوخ ليس هو الادب او العلم او الفن ، وإنما هو ما قد ينتجه الادب والعلم والفن من اقبال الناس على الشيوخ اكثر مما يقبلون على الشباب ؟ وإذن فالامر ينتهي الى ازدحام حول اعراض الحياة الباطلة واغراضها المادية الزهيدة ، حول الشهرة وبعد الصيت ، وما قد تتيح الشهرة وبعد الصيت من مال قليل او كثير ، حول غرور الدنيا وزخرف الحياة . فيا لها من غاية هينة رخيصة لا ينبغي ان يكون حولها ازدحام ، ولا ان يكون اليها تدافع ، ولا أن تتقطع من اجلها الاعناق ، ولا ان تتمزق في سبيلها القلوب . ومن حق الشباب على الشيوخ ان يؤدبوهم بما ينبغي ان يؤدب المجربون به من لا حظ لهم من تجربة ، وان يعلموهم ان الشهرة لا تكتسب لانك تريد اكتسابها . فاذا اكتسبت لذلك فليست هي إلا هباء ، وان المال لا ينبغي ان يؤخذ بغير حقه ، فاذا اخذ بغير حقه فذلك هو الغصب وما يشبه الغصب مما لا يليق بالرجل الكريم . وان غرور الدنيا وزخرف الحياة باطل لا معنى للتهالك عليه ولا للتنافس فيه ، الا ان تفسد القلوب وتصغر النفوس وتقصر الهمم وتفتر العزائم . وان الرجل الكريم

خليق ان يعمل ويعمل ويشقّ على نفسه بالعمل حين يصبح ، وحين يمسي ، وحين يضطرب مع الناس ، وحين يخلو الى نفسه ، واكاد املي ، وحين يستسلم الى النوم .

*

فالعمل وحده هو الذي يستطيع ان يرضي القلب الذكي ، ويقنع النفس الكبيرة ، ويزيد البصيرة نفوذاً الى نفوذ ، والعزيمة مضاء الى مضاء ، وهنالك تسعى الشهرة الى العاملين وهم أشد ما يكونون زهداً فيها واعراضاً عنها ، ويسعى المال الى العاملين وهم اشد ما يكونون ابتذالاً له واستهزاء به . وما اقلّ ما يسعى المال الى اصحاب الجد ، وانما المال موكل بقوم آخرين ليسوا من العمل ولا من الجد في شيء ، وليسوا من الادب ولا من العلم ولا من الفلسفة ولا من الفن في شيء ، الا قليلاً من الذين يحققون القاعدة ولا يهدمونها .

*

نعم ، ومن حق الشباب على الشيوخ ان يؤدبوهم بهذا الادب اليسير الذي توارثته الاجيال وتناقلته العصور ، وهو ان السلامة في الاناة وان الندامة في العجلة ، وان الحياة اشبه شيء بالنهر يجري ولكن الى غاية ينتهي عندها حين يصب في البحر العظيم فيصبح ماء من الماء ، وان مياه هذا النهر قد اريد لها ان يجري بعضها امام بعض ، لا يتأخر المتقدم منها على المتأخر ، ولا يتقدم المتأخر منها على

المتقدم ، وانما يجري بعضها الى الغاية في اثر بعض . فالشيوخ في طريقهم الى الراحة الموقوتة او الدائمة ليس في ذلك شك ، وليس عن ذلك محيص ، والشباب في طريقهم الى ان يأخذوا مكان الشيوخ ليس من ذلك بد ، وليس عن ذلك متحوّل ، والذوق كل الذوق ألا يتعجل الابناء مصارع الآباء ، فمصارعهم محتومة لا مفر منها ، والخير كل الخير ان تقوم الصلات بين الاجيال على المودة والحب ، وعلى التعاطف والبر ، لا على هذا التنافس الذي يُحفظ القلوب ويفسد الضمائر ولا يغير من حقائق الحياة شيئاً .

*

كما انت ايها الصديق الكريم ، لا تقم ان كنت قاعداً ولا تقعد ان كنت قائماً ، ولا ترجع الى وراء ، ولا تنحرف الى يمين او الى شمال ، وانما امض امامك حازماً عازماً ثابت الخطو ، والتفت بين حين وحين الى الشباب مهدياً اليهم ابتسام ثغرك ، واشراق وجهك ، وعطف قلبك ، وصفاء نفسك ، واشر اليهم بين حين وحين : ان اسرعوا ولا تبطئوا ، فليس اشد خطراً على الشباب من التثاقل والابطاء .

مصر بين النعيم والجحيم

•

اقم حيث انت يا سيدي .. لا تبرح الارض ولا تعبر البحر ، فان من ورائه في مصر هولاً هائلاً ، وشراً ماثلاً ، وبلاء نازلاً ، وعذاباً اليماً ، وجحيماً قد استقر فيها لا تدري اهبط عليها من اطباق الجو ام صعد اليها من اعماق الأرض . ولكنها اصبحت ذات نهار ، او امست ذات ليل ، فاذا هو قد اتخذ له في قرية من قراها وكراً ، لا يعرف متى اتخذه ولا كيف اتخذه ولا من اين سعى اليه . ولكنه اتخذ في تلك القرية ذلك الوكر على كل حال ، ثم لم يلبث ان باض فيه وفرخ ، ثم لم يلبث ان ارسل رسله المنكرة طلائعَ له في القرية وما حولها ، ثم امدّ الطلائع

بطلائع مثلها ، ثم اتصلت الامداد وجعلت تزحف في الشرق والغرب وفي الشمال والجنوب ، حتى غمرت مصر كلها بالنكر المنكر ، والوباء المبير .

وقد كان المصريون يقدّرون في سابق الازمان وسالف العصر والاوان ، كما يقول اصحاب الاقاصيص ، ان الآخرة هي التي تقذف بالاشرار في الجحيم وتمتع الاخيار بالنعيم . فقد استبان لهم في هذه الايام ان في الدنيا جحيما ونعيماً ، ولكنهما لا يختاران اصحابهما وانما يتخطفانهم تخطفاً ، ويستبقان اليهم استباقاً . فجحيم الدنيا هذا الذي تصلاه مصر ، لا يتخير الاشرار وحدهم ، وانما يلقي شباكه آناء الليل والنهار وهو واثق كل الثقة بانها لن تعود اليه فارغة ولا خفافاً ، وانما تعود اليه ملأى قد اثقلها الصيد ، تصيب من تشاء او من تستطيع ان تصيبه من الناس لا يعنيها ولا يعني ملقيها ان يكون صيدها خيراً او شريراً .

فاما نعيم الدنيا فأثرٌ حذرٌ متحفظ متحرج ، لا ينتخب اصحابه بين اهل الخير وحدهم ، ولا بين اهل الشر وحدهم . وليس هو من الخير والشر في شيء ، وانما هو نعيم مترف يحب القادرين على الترف ، والمؤثرين له ، والبالغين منه اقصى ما يستطيع الناس ان يبلغوا . وهو من اجل ذلك مقلّ لا يحب الاكثار ، مترفع لا يحب ان يتسفل الى الدهماء ولا ان يمسّ العامة بجناح من رفقه ولينه . وهو لا ينتخب اصحابه من اهل المعرفة ولا من اهل الجهل ،

وليس هو من المعرفة والجهل في شيء ، وانما يجذبه المال اليه جذباً ويعطفه الثراء عليه عطفاً . فهو مولع بالمال الكثير والثراء العريض ، لا يحب الفقراء ولا يميل الى اوساط الناس ، الذين يجدون في شيء من الجهد والمشقة ما ينفقون وانما هو يؤثر بالحب والبر والعطف ، الذين لا يكيلون المال كيلًا وانما يهيلونه هيلًا ، ثم لا ينتخب اصحابه بين الذين اتيح لهم ذكاء القلب وصفاء الطبع ونقاء الذوق ، وليس هو من هذه الخصال كلها في شيء ، وانما اصفياؤه واخلاؤه اولئك الذين قد كثر عليهم المال حتى اثقلهم ، وألح عليهم الثراء حتى اسأمهم ، فهم في شغل بالمال والثراء حين يصبحون وحين يمسون ، وحين يغدون وحين يروحون لا يفرغون من العناية بالمال الا ليعنوا بالترف ، ولا يفرغون من العناية بالترف الا ليعنوا بالمال . يحلمون بالمال في اول الليل ، ويحلمون بالترف في آخر الليل ، وقد يحلمون بالترف حين ينشر الليل ظلمته على الارض ، وقد يحلمون بالمال حين يرسل الفجر ضياءه في الآفاق .

*

هؤلاء هم اصحاب النعيم يقيمون في مصر الان على كره منهم ، لان تدبير المال يضطرهم الى ان يقيموا في مصر ، ولان الاستمتاع بالترف كما يحبون ان يستمتعوا به قد لا يتاح لهم في غير مصر . ولو قد استطاعوا ان يفارقوا مصر لاتخذوا لانفسهم اجنحة يطيرون بها في الهواء ، ويقطعون بها

اجواز الفضاء . . ولكن كيف السبيل الى فراق مصر ، وقد أبيح لأجنحة الطائرات ان تحمل الطائرات الى كل مكان الا مصر . وقد ابيح لمحركات السفن ان تمخر البحار الا الى مصر . وقد حظر على الطائرات والسفن ، إن ألمت بمصر ، ان تحمل من اهلها احداً . فقد قضي على المصريين جميعاً ، من قدر منهم ومن عجز ، من افتقر منهم ومن استغنى ، ان يقرّوا في بلادهم لا يبرحونها ، حتى يقضي الله امراً كان مفعولاً . اما اصحاب الجحيم . . وما ادراك ما اصحاب الجحيم ، فهم الجائعون الضائعون ، والبائسون اليائسون ، والمأزومون المحرومون ، الذين لا يحفل بهم احد ولا يحفلون بانفسهم . وانما عرفت الدنيا وعرفوا معها انهم قد ارسلوا الى الأرض ، ليتجرعوا فيها الشقاء غصصاً ، وليصادقوا فيها الآلام منذ يقبلون على الحياة الى ان يخرجوا من الحياة .

كانوا يعذبون في نار هادئة مطمئنة تشويهم في اناة ، وتنضجهم على مهل ، يبرّح بهم الجوع ، ولكنه لا يقتلهم ، ويلح عليهم الحرمان ولكنه لا يفنيهم ، وانما يعلقهم بين الموت والحياة . فهم يغدون ويروحون ، وهم يقولون ويعملون ، وهم ينامون ويستيقظون ، ولكنهم في هذا كله لا يغنون عن انفسهم شيئاً ، ولا يكسبون لانفسهم خيراً ، ولا يردّون عن انفسهم شراً ، ولا يعصمون انفسهم من مكروه .

*

واعجب ان شئت ان تعجب .. فقد يستحيل الجحيم الى نعيم ، كما يستحيل النعيم الى جحيم . قد يلم الوباء فيلقي في هذه النار الهادئة المطمئنة من الوقود ما يذكيها ويؤججها ، واذا لهبها يتلظى ، واذا هي تنتشر في الارض والجو فتحرق في غير حساب ، واذا الذين كانوا يُشوون في تلك النار الهادئة ، وينضجون على مهل ، ويُعلقون بين الموت والحياة ، تنقطع الاسباب بينهم وبين الحياة في غير اناة ولا ريث ، وتتصل الاسباب بينهم وبين الموت في غير تمهل ولا رفق . واذا هم لا يعلقون في منزلة بين المنزلتين ، وانما يلقون الى الموت إلقاء ، ويتهافتون فيه تهافتاً ، فيخفف عليهم بذلك بعض ما كانوا يحملون من اثقال ذلك العيش البغيض .

نعم ، قد يرفق الله باصحاب الجحيم في هذه الدنيا ، فيرسل اليهم الموت مسرعاً أو يرسلهم الى الموت مسرعين لتتلقاهم رحمته من وراء الموت ، فتجزيهم من بؤسهم في الدنيا نعيماً في الآخرة ، ومن شقائهم في الدنيا سعادة في الآخرة ، ومن جحيمهم الضيق المهلك في الدنيا جنات واسعة ، فيها من النعيم ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . نعم وقد يُحيل الله نعيم الدنيا الى جحيم يمتحن به المترفين فيما ألفت قلوبهم من راحة آثمة ، وفيما احبت ضمائرهم من هدوء بغيض ، فيشغلهم بالحياة عن الحياة ، او قل يشغلهم بالخوف على الحياة عن الحياة ، او قل يشغلهم بحب الحياة عن الحياة ، فاذا هم مولهون مفزّعون قد دخل الروع عليهم دورهم وقصورهم ،

مملأها ذعراً ورعباً ، ثم اقتحم عليهم قلوبهم وضمائرهم ، فملأها جزعاً وهلعاً واشفاقاً ... فهم لا يفكرون في المال ولا في الترف إذا استيقظوا ، ولا يحلمون بالمـــال ولا بالترف إذا ناموا ، وإنما يفكرون في الوباء أيقاظاً ، ويحلمون بالوباء نياما . كلّ همهم ان يفلتوا من الوباء ما وجدوا الى الافلات منه سبيلاً . فهم من هذا الخوف المتصل الملحّ في جحيم ، وهم في جحيم آخر لعـــله ان يكون شراً من جحيم الخوف ، هم يجدون في ضمائرهم ، بل في اعمق الاعماق من ضمائرهم ، حسرة ضئيلة ، ضئيلة ولكنها ملحّة ممضة ، مصدرها اصوات يأتيهم بها الجو من كل مكان ، حتى تأخذهم من جميع اقطارهم ، وحتى لا تصل الى نفوسهم من الآذان التي تصل منهـا الاصوات الى النفوس فحسب ، وانما تصل الى نفوسهم من كل طريق .. تصل الى نفوسهم من طريق العيون والانوف وسائر الحواس . وكل هذه الاصوات تنبئهم بانهم يعيشون في جو من الحسد والبغض والحقد والحفيظة والموجدة ، لا ينفقون درهماً ولا ديناراً الا أحصاه عليهم من حولهم من الناس ، ولا يستمتعون بلذة من اللذات الا سجلها عليهم من حولهم من النـاس ، ولا يطعمون طعاماً ولا يشربون شراباً ولا يتخذون ثوباً الا تمنى النـــاس من حولهم لو اتيح لهم ان يشاركوهم في بعض ما يطعمون ويشربون ويلبسون .

جحيم من الفقر والجهل والمرض والموت للكثرة الكثيرة من المصريين ، وجحيم من الخوف والذعر والبغض والحسد

للقلة القليلة من المصريين ، وحياة تشبه حياة الأعراف بين هذين الجحيمين يحياها فريق من المصريين لم يبلغ بهم الفقر ان يبتئسوا ، ولم يبلغ بهم الثراء ان يترفوا ؛ فهم مذبذبون بين اولئك وهؤلاء من اصحاب الجحيمين . هذه مصر التي سبقتك اليها منذ شهر وبعض شهر .. فما تفكيرك في العودة اليها ، وما حنينك الى ارضها وسمائها ونهرها .. ان ارضها تنبت الموت في كل لحظة من لحظات الليل والنهار ؛ وان نيلها يجري بالبؤس والظمأ والجوع ؛ وان سماءها تمطر الوباء امطاراً وتصبه صباً .

*

أم حيث انت يا سيدي ... لا تبرح الأرض ولا تعبر البحر ، فان من ورائه في مصر هولاً هائلاً ، وشراً ماثلاً ، وبلاء نازلاً ، وعذاباً أليما . إلا ان تكون من الذين لا يحبون الدعة حين تتاح لهم ، ولا يحرصون على الامن حين يساق اليهم ، ولا يكرهون ان يلقوا بانفسهم في النار لعلهم ان يستنقذوا منها بعض الذين يحترقون وما أراك من هؤلاء . انما أنت ما علمتُ محب للدعة ، لا تعدل بها شيئاً ، كلف بالترف ، لا تنسى نصيبك منه مهما تكن الظروف ، كاره للمشقة مهما تخفّ ، مشفق من العناء مهما يكن يسيراً ، محب للمال على علاته لا تزهد في قليله ولا تسأم من كثيره .

فما تفكيرك في العودة الى مصر وما حنينك الى ارضها التي اصبحت داراً للجحيم ... لا تخدعك الاماني ولا تضلك

الآمال ، ولا يستهوك قول الذين يقولون ان الوباء موكل بالبائسين من دون الناعمين ، كلف بالفقراء من دون الاغنياء ، فمن مأمنه يُؤتى الحذر . ولم يستطع احد الى الان ان يرسم للوباء ما ينبغي ان يسلك من طريق ولا ان يحرّم على الوباء هذه السبيل او تلك . فأقم حيث انت .. فليس لك في مصر اربٌ إن كانت لك حاجة الى الامن والدعة والسلامة ، ام تراك مشتاقاً الى مجالسك تلك التي كنت تغشاها ايام الأمن حين كانت تنوب النوائب وتلمّ الخطوب ، فتتحدث عما كان وتتنبأ بما سيكون ، وتتندر بما قال هذا وفعل ذاك ، وتشفق مما كتبت هذه الصحيفة وتسخر مما كتبت تلك الصحيفة ، وتنعم بهذه الحياة الفارغة التي ينعم بها المترفون المتبطلون . هيهات هيهات .. اقم حيث انت يا سيدي ان كنت تريد العافية وتحرص على السلامة ، فان مجالسك تلك ما زالت قائمة حافلة بما الفتَ فيها من اللهو والتبطل والفراغ ، ولكنّ من وراء ما تحفل به من هذا السخف خوفاً يملأ القلوب ويفرق النفوس ، وفيها من وراء هذا الخوف تلك الحسرة الضئيلة ، الضئيلة التي استقرت من الضمائر في اعماقها ، والتي تثيرها تلك الاصوات التي تبلغ النفوس من طريق الحواس كلها ، فتنقل اليها ان في مصر جحيماً من الوباء والموت والفقر والجهل والمرض ، وجحيماً آخر من الحسد والحقد والبغض والموجدة .

أقم حيث انت .. لعلك ان تأمن هذين الجحيمين ، وان

استطعت ان تمد اسباب الهرب والنجاة لجماعة من امثالك فافعل ، فانهم ليتمنون الهرب ان وجدوا الى الهرب سبيلاً . فاذا خمدت جذوة الوباء وانكسرت حدة الشر ، فقد تستطيع ان تعود الى مصر وان تستأنف فيها حيـــاة اللهو والتبطل والفراغ . فاما الان فليس الى شيء من ذلك سبيل .

الحريّة اولاً

•

تريد ان تنشيء الذوق الفني المصفى في نفوس الشباب المصريين ليحبوا الجمال ويذوقوه ، ثم لينشئوا الجمال ويبتكروه ، ثم ليضيفوا الى فنهم القديم فناً حديثا ، ثم ليشاركوا في تنمية هذا الترف الفني العالمي الذي يجعل الانسان انسانا ، ويحببوا الحياة الى النفوس ، ويجعلوا الدنيا شيئاً ذا خطر على رغم ما يحيط بها من هذه الظروف البشعة ، التي تجعلها أهون على الرجل الكريم من جناح بعوضة ، لولا ان فيها اشياء تتصل بالذوق فتجعل لها قيمة وشأنا ...

تريد ان تنشيء الذوق الفني في نفوس الشباب ، ليستقبلوا الحياة راغبين فيها ، محبين لها ، مؤمنين بها ، لا ليقنعوا بما تتيح لهم من ارضاء الغرائز ، وقضاء المآرب القريبة ، وتحقيق

الآمال الوضيعة ، بل ليتجاوزوا الحياة الى ما هو ارفع منها شأناً ، واجل منها خطراً ، وأسمى منها منزلا ، وهو الاستمتاع والامتاع بهذه الثمرات الحلوة التي تجد فيها القلوب راحة ، وتجد اليها النفوس روحا ، والتي تسمو بالناس الى حيث ينظرون الى الحياة مزدرين لها ، ساخرين منها ، زاهدين فيها ، بعد ان كانوا يحبونها اشد الحب ، ويكلفون بها أعظم الكلف ، لانهم يرونها قد انتهت بهم الى الغاية وبلغت بهم آخر الشوط ، فلا عليهم من ان يتركوها ولا عليهم من أن تتركهم ، بعد ان اتاحت لهم ان يستمتعوا ويمتعوا لحظة قصيرة أو طويلة بهذا الجمال الذي لا تؤدي وصفه الالفاظ ، وانما تجد روعته القلوب فتنسى في ذاته كل شيء ...

ثم تريد ان تنشىء الذوق الفني في نفوس الشباب ، ليعرفوا انفسهم وليقدروا وجودهم وليلقوا من يلقون من الاوروبيين والاميركيين ، فيتاح لهم ان يتحدثوا اليهم ويسمعوا منهم ، وان يفهموهم ما يريدون ان يقولوا ، ويفهموا عنهم ما يقولون ، لا يجدون في ذلك مشقة ولا عناء ، وانما يجدون فيه راحة ومتاعا ، ولا يشعرون في اثناء ذلك بما يغض منهم في انفسهم ، ويخيل اليهم او يحقق لهم انهم أقل من الاجنبي الأوروبي والأمريكي ، علماً بما يجب ان يعلم الناس ، وشعوراً بما يجب ان يشعر به الناس ، وتقديراً لما يجب ان يقدره الناس ...

*

تريد ان تنشىء الذوق الفني في نفوس الشباب لتبلغ بهم هذه المنازل كلها ، ولتشعرهم بان من حقهم ان يعتدّوا بأنفسهم ، ويعتزوا بقديمهم وحديثهم ، ويطمحوا الى ما يطمح اليه اترابهم من الشباب في الامم الراقية الاخرى ، وهو ان يتلقوا عن آبائهم تراثاً كريماً وان ينموه ويزيدوا فيه ويدفعوه الى ابنائهم تراثاً كريماً لينموه ويزيدوا فيه ، وان يحققوا بذلك لوطنهم ما ينبغي ان يتحقق للوطن الكريم من هذه الحياة التي تنمو على مرّ الزمن وتربو على تعاقب الايام ، وان يحققوا للانسانية ما ينبغي ان يتحقق للانسانية من هذا الرقي المتصل والسموّ الممتاز .

تريد ان تنشىء الذوق الفني في نفوس الشباب ، وانا ايضاً اريد ان انشىء الذوق الفني في نفوس الشباب ، لأني اعلم كما تعلم ان مهمتنا في الحياة إنما هي تنشيء الذوق الفني في نفوس الشباب ... على هذه المهمة وقفنا جهودنا ، وفي هذه المهمة انفقنا حياتنا ، ولهذه المهمة خصصنا ما بقي لنا من حياة . ولكنك تعلم كما اعلم ان شأننا في ذلك كشأن ابي العلاء حين تقطعت به الاسباب في بغداد ، فقال هذا البيت الذي يراه النقاد قريباً غاية القرب ، وتراه انت وأراه انا بعيداً غاية البعد :

فيا دارها بالكرخ إنّ مزارها
قريبٌ ولكن دون ذلك أهوالُ

يرى النقاد ان أبا العلاء لم يزد على ان تغزل كما تغزل

الشعراء من قبله ومن بعده ، فذكر دار حبيبته وذكر المصاعب التي تقوم بينه وبين زيارتها ، وترى انت كما أرى انا ان أبا العلاء لم يكن من الحب في شيء ، وإنما رمز بدار حبيبته إلى مطامعه البعيدة وآماله النائية والى تلك العقبات التي تحول بينه وبين بلوغ المطالب وتحقيق الآمال .

فتنشيء الذوق الفني في نفوس الشباب يسيرٌ كل اليسر ، ولكنه على ذلك عسيرٌ كل العسر ، وهو قريب كل القرب ، ولكنه على ذلك بعيد كل البعد ، وأي شيء أيسر وأقرب من ان تمنح الشباب ما ينبغي لهم من الحرية التي تتيح لهم ان يقبلوا وان يرفضوا ، وان يحبوا وان يبغضوا ، وان يفعلوا وان يتركوا ، حين يريدون هم لا حين يريد غيرهم ، وغيرهم هذا كثير لا يكاد يحصى ، منه التقليد الموروث الذي يفرض على الشباب ان يفكر ويعبر ويعمل ويشعر ، كما تلقى ذلك عن اسرته وعن بيئته لا كما تريد نفسه ، ولا كما يريد طبعه ان يفكر ويعبر ويشعر ويسير ، ومنه التقليد الاجتماعي المكتسب الذي يفرض عليه ان يحيا كما يحيا الناس ، ويحظر عليه ان ينفرد او يشذ او يأتي من الامر ما يكره النظراء والأتراب . ومنه السلطان الذي يشرع القوانين ، قاسيةً مرهقة مقيدة ، ثم يصطنع في انفاذها وسائل أشد منها قسوة وإرهاقاً وتقييداً . حرّرِ الشباب قبل كل شيء ، ولو تحريراً موقوتاً من هذه القيود كلها او بعضها . دعهم يفكروا كما يريدون . ودعهم يحيوا كما

يريدون . وارشدهم بالقدوة الصالحة والاسوة الحسنة والنصح الرفيق . وثق بانك ان فعلت اعـــددت نفوسهم للذوق الفني الرفيع احسن إعـداد واقومه . انك لتعلم ان الفن حرية قبل كل شيء ، حرية واسعة الى أبعد غايات السعة ، حرية في نفس المنتج وحرية في نفس المستهلك ، كما يقول اصحاب الاقتصاد . خذ من شئت من المبدعـــين في الفن واستقص حياته . فسترى انه لم يبدع الا لانه شذ وانفرد وامتاز وخرج على ما ألف غيره من القيود . وليس كل الناس ميسّراً للفن . وليس كل الناس قادراً عـلى التفوق والابتكار . ولكن من حق الناس جميعاً ان تُهيأ لهم الفرص وتمد لهم اسباب التفوق والابتكار . واول ما يجب لذلك ان يتاح للشباب ، وللشباب خاصة ، ما ينبغي لهم من الحرية التي تفتح قلوبهم وعقولهم وضمائرهم لكل ما في الحيـاة من خير وشر ، ولكل ما في الحياة من حسن وقبح ، ولكل ما في الحياة من حب وبغض ، ليقبلوا عن اختيار لا عن اضطرار وليحبوا ويبغضوا عن رضاً لا عن اكراه . فاذا لم تتح لهم هذه الحرية ، فلا تبتغِ منهم خيراً ، ولا ترجُ منهم نفعاً ، ولا تنتظر لهم تفوقاً ولا ابتكاراً ، وانما انظر اليهم كما تنظر الى الرقيق المسخرين ، والى الحيوان الذي تـــدفعه غرائزه ويحدّ من حريته سلطان المستأنسين له المنتفعين به ، فيما يحـــاولون من المآرب والاغراض . ان الفن حرية لا رقّ .. فاذا اردت من الشباب ان يذوقوا الفن ويسيغوه

ويحاولوه ويبتكروه ، فاجعلهم احراراً ، لان الفن أثر من آثار الاحرار لا من آثار العبيد .

*

أي شيء ايسر من ان تجعل الشباب احراراً .. انك لتريد ذلك واني لأريده ، ولكن اي شيء أعسر من ان تجعل الشباب احراراً . ان التقاليد الموروثة ، والتقاليد المستحدثة ، وسلطان الحكومة ، وسلطان الجماعة ، وظروف الحياة ، كلها في هذا الوطن البائس ، تأبى على الشباب ان يكونوا احراراً .. فأنشد معي اذن قول ابي العلاء :

فيا دارها بالكرخ ان مزارها
قريب ولكن دون ذلك اهوال

والتمس من العزائم والطلاسم والتمائم ما يحميك ويحميني من هذه التهمة الكبيرة الخطيرة ، تهمة الميل الى افساد الشباب . وأي خطر على حياة الشباب في بلد كمصر ، أشد من ان تلتمس له هذه الحرية التي يستمتع بها الشباب في غير مصر من البلاد التي الفت الحرية ، فلم تستطع ان تتسلى عنها ولا ان تزهد في ثمراتها الحلوة والمرة جميعاً .

ثم لا تنس انك لن تمنح الحرية للشباب حين تضع عنهم إصرهم والاغلال التي تثقلهم من التقاليد والظروف ، فقد ينبغي ان يعيش الأنسان قبل ان يكون حراً ، وقد ينبغي ان يُعصم الأنسان من الحرمان ليعيش ... فحرّر الشباب من البؤس والجوع وهمّ التفكير ، فيما يقيم الأود ، وحررهم

من الجهل وأتح لهم علماً وادباً وثقافة ، ويسّر لهم بعد ذلك ان يعيشوا في جو سمح غير متحرج ولا متزمت ، وخلّ بينهم وبين الدنيا وما فيها مما يسرّ ومما يسوء ، مما يحسن ومما يقبح ، مما يلذ ومما يؤلم . وثق بأنهم سيحسون ويشعرون ، وثق بانهم سيرضون ويسخطون ، وثق بانهم سينعمون ويبتئسون ، وثق بانهم سيستقبلون هذا كله بانفسهم لا من طريق غيرهم ، وثق بانهم ان استقبلوا الحياة ولذاتها وآلامها وخطوبها واحداثها ، فسيصورون ما يستقبلون من ذلك وسيعبرون عنه وسيتأثرون به وسيؤثرون فيه ، وسيكون كل واحد منهم انساناً حراً عاملاً . وحيثما وجد الانسان الحر العامل ، وجد الذوق الفني ووجدت آثار الذوق الفني من الاستمتاع والامتاع جميعاً .

*

اذهبتَ الى الجامعة ؟ أشهدت الشباب الجامعيين حين يختلفون الى الدروس ويستمعون الى الاساتذة ، وحين يتحدثون الى اساتذتهم وحين يتحدث بعضهم الى بعض ، أرأيت في هذا كله شيئاً يشبه ما تعرف من شؤون الشباب الجامعيين في البلاد الاجنبية الراقية ؟ ألم تر الى تزمت الاستاذ حين يلقي الدرس وتزمت الطلاب حين يستمعون له ؟ الدرس عبء ثقيل على الاستاذ يتخفف منه بالقائه في غير حب ولا كلف ولا ذوق . والاستماع عبء ثقيل على الطلاب يتخففون منه ، باحصاء الدقائق وانتظار

الجرس الذي يرد اليهم ظلًا من الحرية ، ويخلي بينهم وبين الانطلاق الى ما هم فيه من سخف الحديث ، وفيما يتحدث البائسون في اشياء لا تتصل بالثقافة من قريب او بعيد ، في اشياء لا تتصل بالعلم ولا بالفن ولا بالذوق وانما تتصل بصغائر الأمور وسفاسفها ... تتصل بالذات القريبة والمنافع العاجلة ، وقد تتصل بالسياسة فلا تمس إلا" ادناها الى السخف وابعدها عن الغناء ، تتصل بهذه اليوميات التي لا تقدم ولا تؤخر في حياة الجماعات ، فاذا تركوا الجامعة فالى الجهود الضائعة والحياة الفارغة ، الى حرمان المحرومين ، وشقاء الاشقياء ، وصبر الصابرين على المكروه ، ويأس اليائسين حتى من روح الله . فاذا اتيح لبعضهم شيء من اللهو وفضل من المتاع ، فانت تعلم حيث يلتزمون ذلك ، وأنت تعلم ما يكون بين ذلك وبين الذوق الفني المترف الرفيع من صلة ، والخير كل الخير ان نطوي الحديث عنه طياً .

*

أذهبت الى مدرسة الفنون الجميلة ؟ أرأيت الى النقش والحفر والتصوير وغيرها من الفنون ، تلقى الدروس فيها على الطلاب ، كما كانت تلقى عليهم دروس النحو والحساب يدعوهم اليها الجرس ، ويصرفهم عنها الجرس ، ويشرف عليهم في اثنائها وفيما بينها نظام دقيق قد رسمت له اللوائح وبينت له الحدود ... فهم يسكنون بمقدار ويتحركون

بمقدار . وهم يسكنون بمقدار ويتكلمون بمقدار – مدرسة عسكرية لا اكثر ولا اقل . فكيف تريد للذوق الفني المترف الرفيع أن ينشأ او ينمو أو يمتاز في هذه البيئات التي لم تخلق إلا لتقتل الذوق أو لتفسده على أقل تقدير ؟! وأي شيء ايسر من ان تردّ الى هذه البيئات في الجامعة ، وفي مدرسة الفنون الجميلة ، وفي معاهد التعليم كلها ، شيئاً من اليسر والاسماح ومن الدعة والحرية ، لأنك تريد ذلك ولأني اريده . ولكن هيهات .. دون ذلك اللوائحُ والقوانين والأمن والنظام والخوف والاغراق في الخوف . نفوس الشباب المصريين أشبه شيء بهذا العفريت الذي حبسه نبي الله سليمان في قمقم مطبق من النحاس الصفيق ، وختم عليه بخاتمه وأمر به فألقي في اعماق البحر ، كما يحدثنا بذلك القاص في الف ليلة وليلة . وأجسام الشباب المصريين هي هذه القماقم المطبقة الصفيقة ، إلا أنها ليست من نحاس وإنما هي من لحم ودم . والفرق بين هذه النفوس السجينة في قماقمها وبين ذلك العفريت ، هو ان العفريت وجد الصياد الذي استخرج قمقمه من اعماق البحر ، وفض عنه خاتمه ، ورفع عنه غطاءه ، وأتاح للعفريت ان يحدث عهداً بالهواء والنور والحرية .

*

فالى ان تجد نفوس الشباب المصريين هذا الصياد الذي يخرجها من قماقمها ، ويرد اليها الحرية ، ويخلي بينها وبين

الهواء والنور والجمال ، تستمتع به وتمتع به الأجيـــال ... الى أن يوجد هـذا الصياد تستطيع ان تتحـدث عن الذوق الفـــني المترف الرفيـع ، وعن تنشيئـه في نفوس الشباب كما تشاء .

ويل الشجي من الخلي

•

عن أية عاطفة صدرت يا سيدي حين كتبت إليّ كتابك هذا الذي تلقيته منذ ايام، فلم أدر ماذا اصنع به ولم أدر ماذا صنع بي! فلو قد استجبت للعواطف الأولى التي أثارها في نفسي، لمزقته تمزيقاً، او لحرّقته تحريقاً، او لألقيته في سلة المهملات كما يقول الذين يتبذلون في الحديث. ولكني اكره ان استجيب للعواطف حين تجيش، وللغضب حين يثور. فلم امزقه ولم احرّقه ولم ألق به بين المهملات. وإنما تركته يوماً ويوماً ثم عدت الى قراءته، فلم يثر في نفسي إلا ما أثاره اثناء القراءة الأولى من الغضب والحفيظة والموجدة.

ويل الشجي من الخليّ ... انك لرجل ناعم البال ، قرير العين ، مطمئن القلب ، هـادىء النفس ، مستريح الضمير . تكتب الى قوم ليس لهم من هذا كله حظ قليل او كثير . فهم مروّعون مفزّعون ، قد شمل القلق نفوسهم ، وملأ الحزن قلوبهم ، وشاعت الكآبة في ضمائرهم ، حتى ضاقوا بالحياة وضاقت بهم الحياة . وشتان ما حالُ المقيمين فيما وراء البحر ، تبتسم لهم الشمس المشرقة ويبتسمون لها ، ويحنو عليهم الليل الهادىء ويطمئنون اليه ، لا تشغلهم بين ذلك احداث النهار ولا خواطر الليل ، وإنما هم يستقبلون حياة رائقة شائقة ، قد فرغوا فيها لأنفسهم وفرغت فيها انفسهم لهم . فهم يمرحون ويفرحون ويسرحون ويروحون ... قد امنوا كل كيد ، واعتصموا من كل مكروه .

ولست ازعم ان الحياة من حولك هادئة راضية وناعمة باسمة ، فان الهدوء والرضا والنعيم والابتسام امور لا تتاح الآن لكثير من الشعوب . ولكنك تعيش غريباً فيما وراء البحر ، قد بعدتَ عن وطنك فلم تشارك اهله فيما يجدون من البؤس والشقاء ، ومن الخوف والاشفاق ، ومن القلق والاضطراب . وبعدت عن مضيفيك لأنك غريب بينهم ، لا تشاركهم في ألم ولا أمل ، ولا تشاطرهم نعيماً ولا شقاء . وإنما انت قريب منهم بعيد عنهم ، تنعم بما عندهم من نعيم ، وتتجافى عما عندهم من بؤس وشقاء .

فأنت الرجل الحر الطليق ، وانت الرجل الموفق السعيد ،

يأتيك المال كثيراً موفوراً من مصر ، ويأتيك النعيم كثيراً موفوراً من فرنسا ، لانك تقدر بالمال المصري الذي لا يجده اكثر المصريين ، على ان تحصل من النعيم الفرنسي ما لا يجده اكثر الفرنسيين . فانت ناعم على رغم المصريين والفرنسيين جميعاً . يستخرج لك المال المصري من شقاء مواطنيك . ويستخرج لك النعيم الفرنسي من شقاء مضيفيك .. وانت مع ذلك ساخط على اولئك وهؤلاء ، لا ترضى عما يجري هنا ، ولا تطمئن الى ما يجري هناك . تنكر المصريين لانهم لم يبلغوا في رقيهم المادي والعقلي ما بلغ الفرنسيون ، ولانهم لا يستطيعون ان يوفروا لك من وسائل الترف والدعة والامن ما يوفره لك الفرنسيون .

وانت من اجل ذلك تهجرهم وتهاجر من ارضهم ، وتكتفي منهم بان يزرع الزارع ، ويصنع الصانع ، ويجوع الجائع ، ويبتئس المبتئس ، ويشقى الشقي ، لتجتمع لك الوف من الجنيهات تتبعها الوف ، ولتحول لك هذه المقادير الضخمة من المال ، تنفقها فيما يحب الله وما لا يحب من وسائل الترف .. ومواطنوك في شظفٍ من وسائل الراحة والنعيم ، ومواطنوك في عناء وشقاء .

وتنكر الفرنسيين لأنهم لا يخضعون للسلطان كما يخضع له مواطنوك ، ولا يستكينون للقوة كما تعودت ان ترى الناس يستكينون لها من حولك في مصر ، ولا يعبدون عجول الذهب كما تعودت ان ترى الناس يعبدون عجولاً ذهبية

كثيرة على ضفاف النيل ، كما يقول جوت – ان اتاح لك الفراغ والعبث ان تقرأ ما قال جوت . ولكنك مع ذلك تسعى الى فرنسا كلما امكنتك الفرصة ، وتقيم فيها ما طابت لك الاقامة . يكفيك من اهلها ان يأخذوا منك مالك الذي شقي المصريون ليرسلوه اليك ، وان يعطوك نعيمها الذي يشقى الفرنسيون ليتيحوه لك .

ولو طلب اليك او ابيح لك ان تتمنى ، وان تعرب عما تتمنى ، لتمنيت وطناً يجمع بين ما تحب من الرقي المادي والعقلي الذي تعجب به فرنسا ، ومن خصال الخضوع للسلطان والاستكانة للقوة وعبادة المال التي تعجب بها في مصر ، ويبرأ من هذه الخصال التي تنكرها هنا وهناك ، وطناً يلائم حبك لنفسك وايثارك لها بالخير كل الخير ، وازورارك بها عن كل ما يكره او يشق او يسوء . ولكن أرح نفسك من هذا العناء ، وأعفها من هذه الاماني الكاذبة التي لن تتحقق ، لان تحقيقها شيء ليس اليه سبيل . فحيثما وجد الرقي العقلي والمادي الذي تحبه ، وجد النزوع الذي تكرهه وتنكره الى الحرية الحرة التي لا تبيح لاهلها خضوعاً ولا استكانة ولا اذعاناً لسلطان المال . وحيثما وجد الانحطاط المادي والعقلي الذي تكرهه ، وجد الاذعان والخضوع والاستكانة وعبادة المال والفناء في الثراء ، الى غير ذلك من الخصال التي تعرفها وتألفها وترضاها من مواطنيك .

فانت بين اثنتين يا سيدي ليست لها ثالثة .. إما ان

تعيش في مصر كما نعيش ، مواجهاً ما تنكر من الضعف والقصور والتقصير والانحطاط ، محاولاً كما نحاول اصلاح ذلك ، واما ان تعيش في فرنسا مستمتعاً بما يتوق اليه جسمك من هذا النعيم المادي الفارغ ، والى ما قد يطمح اليه عقلك من هذا النعيم المعنوي الخصب ، محتملاً ما تعيب على الفرنسيين من طموحهم الى الخير ، ونزوعهم الى الحرية ، ومطالبتهم بالحق ، والتجائهم احياناً الى ما يغيظك ويحفظك من مظاهر التمرد والغلو في الاضراب ، وحرمانك بين حين وحين هذه اللذة او تلك من لذات الجسم والعقل . فانت ترى هذه اللذات حقاً لك ، لا ينبغي ان ترد عنه ولا ان تجد مشقة في الظفر به ، متى شئت وكيف شئت . والفرنسيون يرون مثل ما ترى ، ولكنهم لا يؤثرونك انت وامثالك بهذا الحق من دون عامتهم . وانما يريدون ان يظفروا به كما تظفر به ، وان يحصلوا عليه كما تحصل عليه ، متى شاءوا وكيف شاءوا ، والا يذودهم عنه ذائد من فقر او جهل او مرض ، ومن ظلم او بغي او طغيان .

فاختر لنفسك يا سيدي . وقد اخترتَ فاحسنت الاختيار .. فانت لا تعيش في مصر لأنها لم تبلغ من الرقي العقلي والمادي ما تحبّ . ولكنك تستغلّ مصر لأنها ترسل اليك المال الكثير الذي تشتري به النعيم الكثير . وانت لا تعيش في فرنسا لأن اهلها لا يخضعون ولا يخنعون ولا يقنعون . وانما تقيم فيها اقامة الغريب تستمتع بخيراتها ولا

تحمل مع اهلها شيئاً من التبعات . انت تحيا على هامش مصر ، ولكنك تستمد حياتك من صميمها . وانت تحيا وتنعم على هامش فرنسا ، ولكنك تستمد حياتك ونعيمك من صميمها . يشقى المصريون والفرنسيون جميعاً لتحيا انت وتنعم بالحياة ، ثم لا يجد اولئك ولا هؤلاء منك معونة حين تنزل بهم النوازل ، او تلمّ بهم الخطوب ، لأنك قد تركت مصر بجسمك وعقلك جميعاً ، وتركت فرنسا بجسمك وعقلك جميعاً ايضاً ، وان اقمت فيها وأطلت الاقامة ، لان اقامة الغريب في وطن لا تحمّله من تبعات المواطنين شيئاً .

لقد اخترت يا سيدي فاحسنت الاختيار فيما ترى .. عشت على هامش الوطنين ، واستمددت حياتك وسعادتك من صميم الوطنين . ورضيتَ لنفسك هذه المنزلة ، منزلة الطفيلي الذي ليس هو من اولئك ولا هؤلاء ، ولكنه على ذلك يستغل جهد اولئك وهؤلاء . وليس كل الناس قادرين على ان يرضوا لانفسهم ما رضيت لنفسك ، وليس كل الناس يستطيعون ان يكونوا على هامش الحياة في اوطانهم او في مهاجرهم . فانعم ان شئت بحياتك هذه التي آثرت بها نفسك ، ولكن لا تنكر على غيرك من الناس ان يعيشوا كما يحبون . وانظر الى الحياة ان شئت على انها متاع عابث ، او عبث ممتع . ولكن لا تنكر على غيرك من الناس ان ينظروا الى الحياة على انها جدّ وكدّ ، واحتمال للاثقال ، ونهوض بالاعباء ، ومحاولة للنفع ، وسعي الى الخير ، وجهاد في سبيل

الاصلاح .

أفهمت الآن لماذا تلقيت كتابك ، فهممت ان امزقه او احرّقه او اهمله ؟ غاظني ما فيه من سخر بمصر لأنك لا تستطيع ان تجد فيها الفنادق التي تجدها في فرنسا ، ولا تستطيع ان تجد فيها الملاهي التي تختلف اليها في فرنسا ، ولا تستطيع ان تزور فيها المتاحف الفنية الرائعة الكثيرة التي تزورها في فرنسا ، ولا تستطيع ان تنعم فيها بمثل ما تنعم به في فرنسا من ضروب اللهو وألوان المجون وفنون النعيم .

وغاظني سخطك على فرنسا لأن العمال يُضربون فيها فيكثرون الاضراب ، ويضيعون عليك من لذاتك المباحة والمحظورة ما انت حريص على تحصيله ، ولأن الاحزاب تختلف فتسرف في الاختلاف وتختصم فتغلو في الخصومة . وينشأ عن ذلك ما ينشأ من الاضراب والاضطراب والمظاهرات ، وتردد الفرنك بين الرفعة والضعة وبين الغلاء والرخص . ويؤثر ذلك كله في حياتك المادية بما يحدث فيها من العسر ، وفي حياتك العقلية والشعورية بما يحدث فيها من الخوف والشك والقلق .

ولكن ما رأيك في ان مصر في حاجة اليك والى امثالك ليستنقذوها من ضعفها ، وليبلغوا بها هذا الرقي الذي تحبه وتتمناه ... فعد اليها واعمل فيها واعمل لها ، وامنحها وقتك وجهدك ومالك إن استطعت ، ولكنك لن تستطيع ...

فدعها إذن وما هي فيه ، ودع اهلها وما هم فيه ، انك لا تستطيع ان تمنحهم معونة ولا حولاً ولا قوة ، تحول الاثرة بينك وبين ذلك ... فأرحها منك وأرح نفسك منها . خذ ما ترسله اليك من المال ، ولا ترسل اليها مكانه سخرية واستهزاء .

وما رأيك في ان فرنسا لم تخلق لك ولا لأمثالك من الطارئين النازحين الذين يأكلون وينكرون وينعمون ويعيبون . وإنما خلقت لنفسها واهلها قبل ان تخلق لغيرها من البلاد ، وقبل ان تخلق لغير اهلها من الناس . فخذ منها ما تقدم اليك من ضروب اللهو والمتاع ، وأدّ اليها ثمن هذا كله من المال الذي ترسله اليك مصر ، وارضَ عن نفسك وأنكر على فرنسا إن شئت ، ولكن اخف انكارك واجعله شيئاً بينك وبين ضميرك ولا تتحدث به الى الفرنسيين ، ولو قد فعلت لألقوك في غيابات السجن إلقاء ، او لنفوك من الارض نفياً . لا تتحدث إليّ ، فاني لا احب الذين يأكلون وينكرون وينعمون ويسخطون . واني بعد هذا كله اعجب اشد الاعجاب واقواه بما اجد في الفرنسيين من هذا النزوع الى الحرية ، والطموح الى الكمال ، والتوثب الى الخير .

ويل الشجي من الخليّ ، وويل العاملين من الكسالى ، وويل الجاهدين من القاعدين .

أرح نفسك من الناس وأرح الناس منك ، وافرغ

لحياتك الفارغة . واذا لم تجد بداً من الكتابة اليّ ، فاكتب اليّ بما يرضيني ولا يؤذيني ، فاني لست منك ولا من حياتك الفارغة في شيء .. وانا اهدي اليك مع ذلك تحية فيها من الرثاء لك اكثر مما فيها من السخر منك .

لا ونعم

•

ان شئت حدثتك بما يرضيك ، فللصديق عند صديقه كل ما يحب . وان شئت حدثتك بما يؤذيك ، فللصديق عند صديقه بعض ما يكره . والناس يخطئون حين يظنون ان الصديق لا ينبغي ان يلقى من صديقه دائماً الا ما يسره ويجبره . فالصداقة نصح وليس النصح حلواً دائما . وما ارى الا أن الصداقة أشبه شيء بالفلسفة ، في رأي أفلاطون . . لا تخلص للحلاوة الحلوة ، ولا تخلص للمرارة المرة . وانما هي شيء بين ذلك يحلو ويمر ، ولعله يحلو ويمر في وقت واحد .

فلك عندي اذن ما يسرك ، ولك عندي اذن بعض ما يسوءك . ولقد رضيت عنك امس كل الرضى في اول الضحى ،

وسخطت عليك امس كل السخط حين اوشك النهار ان ينتصف . ولقد هممت ان اطوي عنك ما ارضاني وما اسخطني جملة ، او ان أطوي عنك ما ارضاني وما أسخطني حتى القاك ، فنستأنف ما تعودنا ان نستأنف من الحديث الحر السمح كلما التقينا . ولكني اشفقت ان لقيتك الا اصارحك بما في نفسي من لوم لك ووجد عليك .. فأنت رجل حلو المحضر ، عذب الحديث ، خلاب جذاب ، ماهر الجد ، حلو الدعابة ، تشغل محدثيك بمحاسنك الكثيرة عن عيوبك القليلة ، وتلهيهم بالاستماع لك والاعجاب بك عن التحدث اليك ، فكيف بالعتب عليك . ولقد سألت نفسي وأطلت سؤالها ، وتستطيع انت ان تسأل نفسك وتطيل سؤالها . فما رأيت وما احسبك سترى اني واجهتك قط بملامة او عتاب . انما اواجهك دائماً بالثناء والتقريظ وبالاكبار والاعجاب .. فان انكرت منك شيئاً طويت عنك انكاري في أكثر الاحيان ، وكتبت اليك ببعضه في اقل الاحيان.

فخذ كتابي هذا على انه من الكتب القليلة التي ارسلها اليك . فلا تكاد تتلقاها حتى تعلم انها تحمل اليك لوماً او عتباً او نكيراً او دعابة لا تخلو من مرارة مرة . وقد انبأتني بانك تتلقى هذه الكتب فتضيق بها أول الامر وتتثاقل عن قراءتها ولكنك على ذلك تضعها منك غير بعيد ، وتختلس اليها نظرات فيها الرغبة وفيها الرهبة ، فيها الطمع وفيها الخوف ، وتمد اليها يداً تقدم لتحجم وتنبسط لتنقبض ، ثم تندفع مغامرة

فتفض الغلاف في عنف يكاد يفسد ما وراءه ، ثم تلتهم عينك ما في الكتاب التهاماً . فاصنع بهذه الرسالة ما تعودت ان تصنع بامثالها او تعجل قراءتها ، فانت وما تريد من ذلك . ولكني واثق بانك ستجد فيها إخاء الأخ العطوف ، ووفاء الصديق الحميم . ومهما تثقل عليك قراءتها الأولى ، فستخف عليك قراءتها الثانية ، لأني اعلم انك ستقرأها مرتين ، ولعلك ان تقرأها اكثر من مرتين . لقد كنت رائعاً امس في اول الضحى مروعاً في آخره .

*

كنت رائعاً حين كنت تتحدث الينا عما امتازت به نفس غاندي من العزة السمحة والاباء الوديع ، وحين كنت تحدثنا بان جمال الحرية ، وجلال الكرامة ، وروعة العزة والاباء خصال يظهرها اللين اكثر مما يظهرها العنف ، ويجليها الأمن اكثر مما يجليها الخوف ، لأنها لا تستكمل خصائصها الا حين تظهر متحضرة مترفة مجلوة من كدر الغرائز ووضر الطبائع الغلاظ .

والعنف يخرج الانسان عن طوره ، ويرده حيواناً لم تهذبه الحضارة ، ولم يصف طبعه ادب او فن ، ولم ينق ضميره علم او فلسفة او دين . فحرية الانسان العنيف في اوقات السلم والحرب ليست من الحرية الصحيحة في شيء . وانما هي الغرائز المندفعة والطبائع الجامحة والثورة المدمرة التي لا تبقي على شيء ، وليس يعنيها ان تبقي على شيء

لانها لا تصدر عن قلب ذكي ، ولا عن ضمير نقي ، ولا عن عقل رفيع نفاذ . انما هي شيء يشبه عصف الريح ، وقصف الرعد ، وهياج البركان . فاما الحرية الحرة حقاً ، الحرية الخصبة المنتجة ، الحرية الرائعة التي لا تكاد تظهر حتى تملأ القلوب شعوراً والنفوس نوراً ، فهي هذه الحرية المروية المستبصرة التي تتأثر بالتفكير والذكاء حتى كأنها هي التفكير والذكاء . وكنت تحدثنا بان الانسان الكامل في حريته وعزته وابائه ، يمكن ان يختصر كله على ما فيه من عسر وتركيب وتعقيد في كلمة واحدة قصيرة يسيرة ، ولكنها على ذلك شاملة خطيرة ، وهي كلمة « لا » .

وكنت تقول ان كلمة « لا » هـذه كنز لا يفنى ، وليس الى فنائه سبيل ، لأن حول الانسان من ضروب الترغيب وألوان الاغراء والدعاء ما لا سبيل الى احصائه ، ولأن ما يلائم عزته وكرامته من هذا كله اقل من القليل . فالانسان الحر الكريم هو الذي يستطيع ان يقول بقلبه وضميره وعقله ولسانه : « لا » .. يقولها لكل ما يدعوه او يغريه او يرغبه فيما لا يلائمه من عمل او قول او سيرة او تأثر او تأثير . يقولها حين تدعوه المائدة الى ان يأكل اكثر مما ينبغي ، او الى ان يشرب اكثر من طوقه ، ويقولها حين يدعوه الجمال الى فتنة الحسّ ، ويقولها حين تدعوه القوة الى الطغيان والبطش والظلم ، ويقولها حين يدعوه الضعف الى الاستكانة والاذعان والذل ، ويقولها

حين يدعوه الثراء الى الطمع والجشع والبخل ، ويقولها حين يدعوه الاعدام الى السؤال والالحاف والسرقة والمكر ، ويقولها حين يدعوه السلطان والجاه الى الاثرة والاستئثار والمحاباة ، ويقولها حين يدعوه التفوق والامتياز الى الاستكبار والغرور . وكنا نستمع لك معجبين بك ، وقد اتصلت عقولنا بعقلك ، وقلوبنا بقلبك ، وتعلقت نفوسنا بشفتيك . وما ارى الا انك قد اخذت ترضى عن نفسك وتعجب بها ، حين بلغت من قراءة رسالتي الى هذا الموضع ، ففيك شيء من الضعف للثناء عليك ، يدعوك الى شيء من العجب والتيه حين تحس الاعجاب بك والرضا عنك .

*

وما ارى الا انك قد وضعت الكتاب حين بلغت منه هذه الجملة ، فاستأنيت شيئاً ، ومددت بصرك امامك ، كأنك ذاهل بعض الذهول . ثم انحرفت الى يمين ، فألقيت نظرة سريعة خاطفة على هذه المرآة التي تقوم غير بعيد من سريرك .. فانت تقرأ كتابي هذا في غرفة نومك ، لانك لا تخرج منها الا بعد ان تفرغ من الصحف ، وتقرأ ما يحمل اليك البريد . ثم انت تعود الى الكتاب فتقرأه من اوله ، تريد ان تتذوق ما فيه من ثناء عليك وتقريظ لك ، كأنك تجد في هذه القراءة المعادة ، او كأنك تستمد من هذه القراءة المعادة ، شجاعة تعينك على المضي في الكتاب الى آخره ، وعلى استقبال ما ينتظرك فيه من

ملامة وعتاب .

كنت اذن تحدثنا ، فتروعنا بالفاظك العذبة ، ومعانيك الساحرة ، وفطنتك البارعة ، وعقلك النافذ إلى اعماق الحياة ، ولكن التليفون يدعوك ، فلا تكاد تستجيب لمن يتحدث اليك من أقصى الخيط حتى يضعف صوتك بعد قوة ، ويلين بعد شدة ، ويتهالك بعد امتناع وإباء . وقد عرفنا مما سمعنا من كان يتحدث اليك من أقصى الخيط ، فكدنا ننكر ولكننا لم نفعل ، وإنما أحسنّا بك الظن ، وقدرنا انه حسن العشرة وجمال الادب ورقة الحاشية وترف الذوق .

ومضيت في حديثك عن كلمة « لا » هذه ، تبين لنا تصويرها لحرية الفرد ، وتبين لنا تصويرها لحرية الجماعة ، وتبين لنا تصويرها لحرية الشعب ، وتوازن بينها وبين كلمة « نعم » حين تكثر منها نفس الفرد ولسانه ، فيتورط في الموبقات التي تضنيه ، وحين تكثر منها نفوس الجماعات وألسنتها فتتعرض للذلة والهوان ، وحين تكثر منها سيرة الشعب فيتعرض للظلم والاستبداد ، وحين تكثر منها سيرة الحكومات فتتعرض للعدوان والاستعمار .

وانت تضرب لهذا كله الأمثال من حياة المصريين ، ومن حياة غير المصريين ، فيما كان من امرهم ، وفيما هو كائن . وانت تتمنى علينا ان نعلّم المصريين كلمة « لا » وان نذيعها في بيئاتهم مهما تختلف ، وفي طبقاتهم مهما تتفاوت لعلهم ان يجمعوا عليها فتسلم لهم حريتهم وكرامتهم ، ولعل

حكومتهم ان تؤمن بها ، وتنطق بها ، وتصر عليها ، فتسلم لمصر سيادتها واستقلالها .

ولكن حاجبك يقبل فينبئك بمقدم الوزير . واذا انت تخفّ في غير إناة ، وتسرع في غير وقار . وينظر جلساؤك اليك مسرعين ، ثم ينظر بعضهم الى بعض متباطئين متسائلين . ثم تثور في نفوسهم وقلوبهم خواطر متباينة وعواطف متناقضة لست في حاجة الى ان أجلوها لك أو اعرضها عليك . فقد قلد أكثرهم سيرتك ، فخف في غير اناة واسرع في غير وقار . واذا انتم جميعاً تهرعون لاستقبال الوزير . وصدّق أقلهم مقالتك فتمهل واستأنى ولبث في مكانه . حتى إذا اقبل الوزير قام في أدب ، وتلقى تحيته في احتشام ، وردّها اليه في ظرف ، وعاد إلى مجلسه في وقار .

*

وأنت تذكر بعد ذلك ما كان من سيرتك وسيرة جلسائك مع الوزير ، وما كان من سيرة الوزير معك ومع جلسائك ، منذ اقبل الى ان انصرف . وأنت تذكر ما كان من خفتكم لتشييعه في غير اناة ، ومن اسراعكم الى مرافقته في غير وقار ، ومن عودتكم بعد ذلك وعلى ثغوركم ابتسام خير منه العبوس ، وفي وجوهكم اشراق خير منه الاظلام . ولكنّ في ألسنتكم انعقاداً أفصح من الكلام ، لأن قلوبكم كانت مستجيبة ، ولأن ضمائركم

كانت مستخذية ، ولان غشاء رقيقاً من الكآبة الفاترة كان يقوم دون عقولكم ، فيمنع نورها ان ينفذ الى خارج ، ويمنع نور الحياة والحرية ان ينفذ اليها . والحمد لله على ان قلوبكم ما زالت شاعرة تجد الحياء ، وعلى ان ضمائركم ما زالت نقية يظهر فيها كدر الاستخذاء ، وعلى ان عقولكم ما زالت صافية تغشاها الكآبة بين وقت ووقت ، حين ترى ما لا يجمل بكرام الناس . فليس يجمل بكرام الناس ان يحبوا كلمة « لا » اذا خلوا إلى انفسهم ، وان يقولوا « نعم » اذا لقوا اصحاب الجاه والسلطان . وليس يجمل بكرام الناس ان يتحدثوا حديث الاحرار ويسيروا سيرة العبيد ، وليس يجمل بكرام الناس ان يناقضوا الى هذا الحد بين ما يعتقدون في دخائل نفوسهم واعماق ضمائرهم ، وما يظهرون من سيرتهم حين يعاشرون امثالهم من الناس . فالوزير يا سيدي رجل مثلك مهما يكن حظه من القوة والسلطان ، ومهما يكن حظه من الذكاء والحذق ، ومهما يكن حظه من التفوق والنبوغ ... هو رجل مثلك ، خلق من تراب وسيعود الى تراب ، يأكل كما تأكل ، ويشرب كما تشرب ، وينام كما تنام ، ويستيقظ كما تستيقظ ، ويسعى بين الناس كما تسعى انت بين الناس ، ويخلو الى نفسه كما تخلو انت الى نفسك ... فحقه عليك كحقك عليه لا ينبغي ان ينقص ولا ينبغي ان يزيد .

استغفر الله ، بل حقه عليك اقل جداً من حقك عليه ،

لانك قد نصبته لخدمتك ، وكلفته النهوض ببعض امرك ، وأجرته على ذلك اجراً يقبضه في كل شهر ، حين يأخذ مرتبه هذا الضئيل ويقبضه في كل يوم وفي كل ساعة وفي كل لحظة ، يستمتع بما تحيطه به الدولة من مظاهر السلطان والجاه .

فاما هو فلم ينصبك لشيء ، ولم يكلفك شيئاً ، ولم يأجرك على شيء ، وليس له عندك الا ما للانسان عند الانسان من الرفق الرفيق ، والمعاملة الكريمة ، والادب الجميل . ولعمري لئن عجزت عن ان تمسك على نفسك إباءها امام وزير ، انت شاركت في جعله وزيراً ، لتعجزنّ اشد العجز واشنعه حين تغريك المغريات ، وتخوفك المخوفات .. وما اكثر ما في حياة الناس ، وفي حياة امثالك خاصة ، مما يغري ويخيف . وعزيز علي ايها الصديق الكريم ان اسوءك بقول او فعل ، ولكن الصداقة نصيحة قبل كل شيء ، ولم ينصح لك من ابدى لك ما يسرك ، واخفى عليك ما يسوءك .

*

فاستقبل امرك ذكياً نقياً ابياً ، واجتهد في ان ترى نفسك كما اراها ، فتعرف منها مثل ما اعرف ، وتنكر منها مثل ما انكر . واذا تعلقت عليّ بما تنكر من امري ، فافرض على نفسك من النصح لي والعنف بي ، مثل ما افرض على نفسي في ذاتك . واذكر ان قوماً كانوا في الدهر يصنعون الاصنام ليعبدوها ، وان الزمن قد تقدم وتقدم

واصبح مما لا يلائم كرامة الناس ان يصنعوا الوزراء ليقدموا اليهم الطاعة والخضوع .

صحائح الأنباء

•

في اي انباء مصر تريد ان اكتب اليك ايها الصديق الكريم ؟ فيما يرضيك ويلهيك ؟ ام فيما يؤذيك ويضنيك ..؟ فعندي وعند كل مصري من هذه وتلك اطراف . امرنا في ذلك كأمر غيرنا من الناس في غير مصر من البلاد . فعند كل انسان مهما يكن ، ومهما يكن بلده ، انباء تسرّ وتلهي وانباء اخرى تسوء وتؤذي ، لان حياة الناس كلهم في عصورهم كلها وفي اوطانهم كلها مزاج من الجد والعبث ، ومن الخير والشر ، ومن اللذة والالم ، ومن الحزن والسرور .

في اي انباء مصر تريد ان اكتب اليك اذن ؟ ! اما ان كنت راضي العيش ، ناعم البال ، مطمئن القلب ، فقد ينبغي ان اكتب اليك في انباء مصر التي تحزن بعض الحزن ، وتنغص

بعض التنغيص ، ليعادل ما تحمل اليك من المساءة بعض ما انت فيه من المسرة . واما ان كنت ضيق النفس ، كئيب الضمير ، محزون القلب ، فقد ينبغي ان اكتب اليك فيما يسليك ويلهيك ، لتجد فيما يلقاك من ذلك راحة تخفف ما انت فيه من جهد ، وسروراً يلطف ما انت فيه من حزن ، ورضا يردك الى ما ينبغي لك من اعتدال المزاج .. ولكن لا اعرف من امرك شيئاً ، وقد انقطعت رسائلك عني منذ شهر وبعض شهر . ورسائلك لا تنقطع الا حين تشغلك السعادة أو حين يشغلك الشقاء . فأنت رجل تؤثر نفسك بما يتاح لك من الخير وبما يعرض لك من الشر ، ولا تفكر في اصدقائك ولا تكتب اليهم الا حين تفرغ من السعادة والشقاء جميعاً ، وتضطر الى هذه الحياة الهادئة التي تضيق بها وتضيق بك ، فتتسلى عنها وتسليها عنك بالتفكير في الاصدقاء والسعي الى لقائهم إن كانوا قريباً منك ، والكتابة اليهم إن نأت بهم عنك الدار .

*

فانت في هذه الاسابيع الكثيرة التي لم تصل إليّ فيها رسائلك ، مشغول عني وعن غيري بنعمة سبقت اليك او نقمة صبت عليك . وانا من اجل ذلك حائر في امرك وامري ، اخشى ان تكون سعيداً فيشغلك كتابي عن سعادتك ، واخشى ان تكون شقياً فيكون في تأخير الكتابة اليك شيء من التقصير في ذاتك والتفريط فيما ينبغي لك من الحق

عليّ ، ان نابتك النوائب او ألمت بك الملمات . وما اكره ان تستأثر بما يتاح لك من الخير لاني احبك ، وما اريد ان تستأثر بما يعرض لك من الشر لاني اشفق عليك . فخذ كتابي إذن كما هو وانظر في اوله ، فان كنت سعيداً فدعه حتى تفرغ من سعادتك او تفرغ منك سعادتك . فليس من هذا بد ، لأن سعادة الناس في هذه الحياة سحابة صيف لا تظلّ إلا لتنقشع ، ولا تلمّ إلا لتزول . وان كنت شقياً فاستعن به على دفع ما يغشاك من الشقاء .

*

وفي أنباء مصر والحمد لله ما يسلي المحزون عن حزنه ، وينغص على السعيد سعادته ، ويدعو الرجل العاقل الاريب الى اطالة التروية والامعان في التفكير .

لقد بعد عهدك بمصر أيها الصديق الكريم ، وطال فراقك لها ، وقد جدّت فيها امور وحدثت فيها احداث ، غير تلك الامور وهذه الاحداث التي تنقلها اليك الصحف التي تصدر حيث تقيم والتي تأتيك من حيث نقيم نحن ، لان الصحف لا تنقل من الاحداث والانباء الا ظواهرها . فأما حقائقها ودقائقها واسرارها ومصادرها ، فليست من الصحف في شيء ، وليست الصحف منها في شيء . وما اكثر الانباء التي تروى في الصحف قد رواها الكتاب عن غير فهم ، وقرأها القراء عن غير فهم ايضاً ، وتحدّث بها المتحدثون وذهبوا في تأويلها المذاهب عن غير فهم كذلك ،

لانهم عرفوا ظواهرها وجهلوا حقائقها ، ولان الصحفيين لا يكتبون التاريخ ، تعجلهم عن ذلك مهنتهم التي تضطرهم الى الاسراع ، والى النظام ، والى ان يملأوا صحفاً بعينها في اوقات بعينها ، لا ينبغي ان يسبقوها ولا ينبغي ان يتأخروا عنها . فهم معجلون مهما يتمهلوا ، وهم مسرعون مهما يستأنوا ، وهم مقصرون مهما يتكلفوا من البحث والاستقصاء .

*

وقد قرأتَ في الصحف ونقل اليك الناقلون من غير شك ان في مصر نظاماً مبتكراً لا يعرفه بلد من بلاد الارض ، وهو توكيل الشرطة بالجامعات ومعاهد العلم تحرسها حين يسفر الصبح ، وتحرسها حين يظلم الليل ، وتحرسها بين ذلك حين تستوي الشمس في كبد السماء ، وحين يبسط الظلام سلطانه الرهيب على الكون . وزعم لك بعض الصحف ، وقال لك بعض القائلين ، ان هذا النظام المبتكر البديع قد اريد به الى حصار الجامعات ومعاهد العلم ، حتى لا ينفذ اليها احد من غير اهلها ، مخافة ان يشغل الجاهلون طلاب العلم عن علمهم . وزعمت لك صحف اخرى ، وقال لك قائلون آخرون ، ان هذا النظام المبتكر البديع انما اريد به الى حماية الجاهلين الغافلين من المتعلمين المتنبهين ، مخافة ان ينتشر الجامعيون والمثقفون في الارض ليملأوها شراً بعد ان ملئت خيراً . وقال لك

اولئك وهؤلاء ان في هذا النظام المبتكر البديع عبئاً بالحرية وتضييقاً على الناس في حياتهم ، فبين الجامعيين والمتعلمين وبين الجاهلين والغافلين صلات يجب ان ترعى وعرى يجب الا تنفصم ، صلات الابوة والبنوة والاخاء ، وصلات الرحم والقرابة والمودة . وكل هذه خصال لا ينبغي ان تقطع لان الله أمر بها ان توصل ، فهذا النظام شر ، وهذا النظام نكر ، وهذا النظام بغيض ، الى آخر ما قيل والى آخر ما سيقال ، ما دام هذا النظام المبتكر البديع قائماً ، وما دام الصحفيون يكتبون عن غير استقصاء ، وما دام الناس يقولون بغير علم ، ويخوضون فيما لا يحسنون الخوض فيه ، ودعني استعر من ابي العلاء بيته المشهور :

غدوت مريض العقل والدين فالقني
لتسمع أنباء الامور الصحائح

*

وأنا اعلم انك لن تسعى الى لقائي ، لانك تؤثر غربتك وتألف ما انت فيه من كسل . فأنا اسعى الى لقائك بهذا الكتاب ، لأسمعك انباء الامور الصحائح عن رغبة منك فيها او انصراف منك عنها ، فما احبّ لك ان تجهل مع الجاهلين وتخطىء مع المخطئين . وقد علمت ان مصر ما زالت سباقة الى الخير ، نفاذة من المشكلات ، حلالة للالغاز ، فقد استكشفت مصر في هذه الايام الشداد ان العلم ينفع ويضر ويحسن ويسيء ، ينفع اذا استأثر به العلماء الذين يحسنون

فهمه وتصريفه ، ويضر اذا خلص الى الجهلاء او خلص اليه الجهلاء الذين لا يسيغونه ولا يعقلونه ، ولا يحسنون التمثل له والانتفاع به .. شأنه في ذلك شأن السلاح الخطر الذي لا يحسن استعماله الا من كان به خبيراً ، وشأن العقاقير الخطرة التي لا ينبغي ان يُخلى بينها وبين الذين لا علم لهم بالطب وطبائع الامزجة والاجسام . وما رأيك لو ابيحت القنابل الذرية للناس جميعاً ، وما رأيك لو اصبحت الوان السم الزعاف قريبة المتناول من ايدي الناس جميعاً . فالعلم أشد خطراً من القنابل الذرية لانه يبتكرها ، وهو اشدّ خطراً من السم الزعاف لانه ينشئه ويركبه ويقدر حظه من كل دواء .

*

وقد لاحظت مصر في هذه الاعوام الاخيرة ان قليلاً من علم العلماء قد خلص الى جهل الجهلاء ، ففسدت لذلك امور الناس واخلاقهم وصلاتهم واحكامهم على الاشياء وتصورهم للحياة . فشكا من لم يألف الشكاة ، وسخط من لم يعرف السخط ، ورضي من لم يكن له حظ من رضا ، وأمن من لم يكن ينبغي له الامن ، وخاف من لم يكن للخوف اليه سبيل .

ونظرت مصر فاذا اهلهـــا ساخطون صاخبون قلقون مضطربون ، لا يرضون عن شيء ولا يرضى عنهم شيء ، قد عبسوا للحياة وعبست لهم الحياة ، حتى انكرتهم شمسهم المشرقة ، وانكروا هم شمسهم المشرقـــة ، حتى ضاق بهم

تيلهم الهـادىء السمح ، وود لو تحول عن واديهم فشق مجراه في الصحراء حتى لا يرى هذه الوجوه العابسة ، وهذه النفوس المظلمة ، وهذه القلوب التي بَعُدَ عهدها بالاطمئنان .

*

هنالك التمست مصر لهذه الآفات الطارئة اسبابها وبحثت عن مصادرها ، فلم تجد لها سبباً ولا مصدراً الا هذه المعرفة التي تنسل من الجامعات ومعاهد العلم ... فتـلمّ بالاندية والدور ، وقد تتسكع في الشوارع والحقول ، فتصادف عقولاً خلقت للجهل والغفلة ، وقلوباً خلقت للجمود والهمود ، فتفسد على الناس امورهم كلها . وليس احب الى مصر من ان يكون أهلهـا أحراراً ، وليس احب الى مصر من ان يكون اهلها علماء ، ولكن الحرية والعلم من هـذه الاشياء الخطرة التي لا ينبغي ان تعطى للناس بغير حساب ، وإنما يجب ان تقطر لهم تقطيراً وتقدّر لهم تقديرا ، ويقـتر عليهم فيها تقتيرا . من اجل ذلك ، ومن اجل ذلك وحده ، آثرت مصر سلامة ابنائها من ان يسرفوا على انفسهم في العلم ، وما يستتبع من الحرية وتنبه الشعور ، فندبت شرطتهـا وجيشها لحمايتهم من هذا الخطب الملمّ والوباء المبيد .

لهذا ، ولهذا وحده ، ضُرب حول الجامعات ومعاهـد العلم بهذه الاسوار الكثاف الصفاق من قوة الشرطة والجند حمايةً للجاهلين من علم العلماء ، وحمـاية للعالمين من جهـل الجهلاء ، فمخالطة الجهلاء خطر على المتعلمين ، ومخالطـة العلماء

خطر على الجاهلين ، والدولة الرشيدة الحازمة خليقة ان تفرق بين أولئك وهؤلاء ، وألا تصل بينهم الاسباب الا بمقدار .

*

وقد لاحظت مصر ان هذه القصة ستثير لها مشكلة من أشد المشكلات عنفاً واعظمها تعقيداً ، فشرطتها محدودة ، وجيشها محدود قليل العدد ، وهما لا يكفيان لحماية الناس من علم العلماء وعدوان المعتدين ، وانما يكفيان لحمايتهم من احد هذين الشرين لا منهما جميعاً . ففكرت ، وقدّرت ، ودبرت ، ورأت ان شر العلم اشد خطراً من شر العدوان ، فالمجرم الواحد او المجرمون الكثيرون يصيبون الشخص الواحد او الاشخاص في الاماكن النائية والمواطن المتباعدة على حين تفسد القطرة الضئيلة من العلم والمعرفة عقولاً وقلوباً كثيرة لا يبلغها العدد . من اجل ذلك نقلت اليك الصحف ، وقال لك القائلون ، ان امور الأمن تضطرب في مصر بين حين وحين ، فيصرع هنا قاض ، ويخطف هناك معلم ، وتسرق دار في هذه المدينة او تلك ، وتقع موقعة في قرية من قرى الشمال أو من قرى الجنوب ... لا ينشأ هذا عن تقصير من اولي الامر ، ولا عن تفريط في جنب الامن ، وانما ينشأ هذا عن موازنة بين ألوان الشر ، واختيار لأخف الضررين ، واذعان لاحكام الضرورات الملجئة ، والناس ساخطون دائماً ناقدون دائماً ، تطول ألسنتهم فتسرف في الطول ، وتجمح اقلامهم فتغلو في الجموح ، وتحميهم

الدولة من العدوان فيشكون من انتشار العلم ، وتحميهم الدولة من انتشار العلم فيشكون من انتشار الاجرام ، وينسون قول الشاعر القديم :

اذا لم يكن إلا الأسنة مركباً
فلا رأي للمضطرّ الا ركوبها

*

هذه يا سيدي بعض الانباء الصحائح التي أشار اليها ابو العلاء ، وما اكثر الانباء الصحائح في هذه الايام ، وما اقلّ فهم الناس لها وتعمقهم لحقائقها ، وما اجدرني بان احدثك بالوان منها ، لتعلم اين نحن وأين أنت ، ولتوازن بين حياتك المطردة وحياتنا المضطربة . ولكن اعلم انك لا تريد أن توازن ولا ان تقيس على ان تعرف من امرنا شيئاً ، وما أنت وحياتنا هذه الحصبة التي تتعب وتشقّ لكثرة ما فيها من الحصب الذي يغزو القلوب والعقول . ألم تحدثني في آخر كتبك إليّ بانك تؤثر نعمة الجهل على شقاء العقل ... فانعم بجهلك حيث انت ، ودع لنا ما نحن فيه ، وتقبل تحية كلها رثاء لك واشفاق عليك .

اخوان الصّفاء

•

لم أضق بكتابك حين تلقيته ولا حين قرأته ، لاني تعودت في هذه الاعوام الاخيرة ان اتلقى امثاله في غير ضيق ، وان اقرأها في غير ملل ، وان انشد بعد قراءتها قول ابي العلاء رحمه الله :

واذا اضاعتني الخطوب فلن ارى
لوداد اخوان الصفاء مضيعا

خالت توديع الأصادق للنوى
فمتى اودّع خليَّ التوديعا

ولا يثقل عليك هذا البيت الثاني وما فيه من تكلف ، فلا بد من ان تقبل الشعراء على علاتهم . وعلة ابي العلاء انه عاش في عصر تكلف وتصنع ، فلم يكن له بد من

ان يتكلف ويتصنع . وقد اراد ان يذكر كثرة توديعه للاصدقاء وضيقه بفراقهم ، وان يتمنى على الدهر ، لو ان الدهر يستجيب لمن يتمنى عليه ، ان يريحه من الوداع وما يثير في القلب من الحزن والأسى ، وما يغمر النفس به من اللوعة والاكتئاب ، فسلك الى معناه القريب طريقه هذه البعيدة ، وزعم ان توديع الاصدقاء قد اصبح له صديقاً بغيضاً ودّ لو يخلص من صداقته وعشرته .

فاقبلْ لفظ ابي العلاء كما تيسر له وكما نُقل اليك ، وقف عند معناه فانه خليق ان تقف عنده ، لانه يصور نفساً كريمة ، وقلباً ذكياً ، وضميراً وفياً ، وحرصاً اشد الحرص على الوفاء . وهو على ذلك يصور ذات نفسك وذات نفسي في شيء من القصور لا من التقصير . فكلانا حريص مهما تضعه الخطوب على ألا يضيع ود الاصدقاء ، وكلانا يجد في استبقاء المودة والاحتفاظ بالاخاء راحة وروحاً ، ولذة ومتاعاً ، ولكن كلينا ممتحَن ، لا بكثرة التوديع للاصدقاء للنوى ، ولكن بكثرة التوديع للاصدقاء للموت ، او للقطيعة التي هي شر من الموت . فأنت لا تفقد صديقك الذي يستأثر به الموت من دونك ، او قل انك لا تفقده كله ، وإنما تفقد محضره ، وتحرم لقاءه ، وتبقى لك منه ذكرى فيها كثير من حسرة وأسى ولكن فيها كثيراً من دعة النفس ، ورضى القلب ، وراحة البال . تحزن لانك لا تلقاه ولا تنعم بعشرته ، وترضى لأنك تذكر صفاء مودته وصدق إخائه ، وانه قد وفى

لك وانك قد وفيت له ، وانه قد فارقك راضياً عنك وانك قد فارقته راضياً عنه ، فتجد في هذا الشعور شيئاً من عزاء ، وتضيف هذه الذكرى الى هذا الكنز النفيس الذي يغنى به قلبك ، وتنعم به نفسك ، وتستريح اليه كلما ضاقت بك الدنيا او كربتك الخطوب .

فأما القطيعة فانها لا تترك في قلبك الا الحسرة الخالصة واللوعة المصفاة . وويل للقلوب من الحسرة الخالصة ، فانها تلتهم الحياة كما تلتهم النار الحطب . وويل للنفوس من اللوعة المصفاة ، فانها افتك بها من السم الزعاف .

*

وانت تشكو إليّ تنكّر فلان لك وازوراره عنك وتأليبه عليك . وماذا تريد ان اصنع وقد تنكّر لي قبل ان يتنكر لك ، وازورّ عني قبل ان يزورّ عنك ، وألّب علي قبل ان يؤلب عليك . وهلا سرت فيه سيرتي ولقيت قطيعته كما لقيتها ؟ فاني لم أشكُ اليك ولم اشكُ الى احد من تنكره وتنمّره وازوراره ، وإنما طويت عن هذا كله كشحاً ، وضربت عنه صفحاً ، واضفته الى هذه المحن التي يُمتحن الناس بها في هذه الايام ، والتي لا حاجة الى احصائها لأنها اكثر من الاحصاء ، ولا الى التفكير فيها لانها قد كثرت وكثرت حتى اصبحت اهون من ان تفكر فيها او تقف عندها او تضيع في استعراضها ما بقي لنا من الوقت والجهد والنشاط . فأقبِلْ على الناس ما اقبلوا عليك ، وأعرِضْ عنهم ما اعرضوا

عنك ، وامنحهم من قلبك صفوه وعفوه . لا تضمر لهم كيداً ولا تبغهم شراً ولا تدخر عليهم موجـــدة ، وأرح نفسك وارحـني ، وأرح النـاس من شكوى الزمـــان ، والتبرم بالاخوان ، والحزن لقطيعة الصديق ، والأسى لغـدر الخليل . وألق عن نفسك هذه الفكرة الخاطئة ، فان الزمان لم يتغير وان طبيعة الناس لم تتبدل ، وليس الزمان الذي تعيش فيه بشرّ من الزمان الذي عاش فيه اسلافك ، وليس الجيـــل الذي تعاشره بشرّ من الجيل الذي عاشره الآباء والاجداد . فالشمس تجري لمستقرٍّ لها منذ كانت الشمس ، والنهار والليل يستبقان منذ كان الليل والنهار ، والانسان هلوع منـذ كان الانسان ، يجزع ان مسه الشر ، ويجزع ان ظن أن قد يمسه الشر ، ويبخل ان مسه الخير ، ويهيىء نفسه للبخـل ان ظن ان قد يمسه الخير .

وصاحبك هذا الذي جفاك بعـد صفاء ، ونبا جانبـه بك بعد لين : هلوع كغيره من الناس ، اشفق ان يجرّ عليـــه مودتك شراً فاتقاه بسد الذرائع كما يقول الفقهاء ، وخاف على ما في يده من الخير ان ينقصه اتصاله بك فاستبقاه بقطيعته لك وابتغى منه المزيد . ففيم تلومه وقد جرى مع طبعـــه وارسل نفسه على سجيتها ، فاتقى الشر ما وجد الى اتقائـه وسيلة ، وابتغى الخير ما وجد الى ابتغائه سبيـلًا ؟!

*

وحضارة الناس متكافـة ، كانت بعـد أن لم تكن ،

واستحدثت شيئاً فشيئا بعد ان عاش الناس دهراً لا حظ لهم منها ولا سهم لهم فيها . فليس غريباً ان تغلبها الغرائز بين حين وحين ، وليس غريباً الا تثبت لقوة الطبع ، وسجية النفس ، وحب الحياة ، والتماس المنافع واستبقائها .

والصداقة اثر من آثار هذه الحضارة المتكلفة المكتسبة . فهي تجري على وتيرتها وتسلك طريقها ، وتتأثر بما تتأثر به من الخطوب والاحداث .

وانت ترى الخوف يُخرج الناس عن اطوارهم ، ويذهلهم عن اقدارهم ، وينسيهم ما يحسن ومالا يحسن ، ويخفي عليهم ما يجمل وما لا يجمل ، ويلبس عليهم ما يليق بما لا يليق . والقوانين المشروعة تغفر لهم ما يدفعهم اليه الهلع والفزع من المآثم والموبقات . وقد هلع صاحبك حين رأى الامر الى من لا يحبك ولا يدانيك ، فمال مع الريح ، وانعطف مع المنفعة ، وآثر نفسه بالخير ، وضحى بالود القديم ، فاغفر له واصفح عنه ، ولا تضع نفسك في موضعه ، ولا تقل انك قد امتحنت بمثل محنته فوفيت للصديق وضننت بالاخاء ، فليس كل الشجر يثبت للريح العاصفة ، وانما يثبت لها الشجر الضخم الذي رسخت اصوله في الارض وارتفعت فروعه في السماء . فقل انك شجرة تثبت للريح وان صاحبك هذا نجم يميل معها كل مميل .

ولا تقل ان الناس يخطئون حين يسرفون في الصداقة ، ومن حقهم ان يبخلوا بها ؛ ويبذرون المودة ،

ومن حقهم ان يحرصوا عليها ويقتصدوا فيها ، لان حياتهم قصيرة والصديق الوفي نادر قليل . فكل هذه خواطر وآراء لا تخطر الا للذين تأصلت في نفوسهم الحضارة ، ورسخت في قلوبهم المودة ، كما رسخت في الراحتين الاصابع على ما يقول قيس بن ذريح . وهؤلاء هم الصفوة القليلة التي لم تخلق لتشبع وتكثر ، وانما خلقت لتقلّ وتدخر ، وتكون مضرباً للمثل ، وموضوعاً لاحاديث الكتب ، ومسرحاً لخيال الشعراء .

*

وانت قد قرأت الكتب ، ورويت الأخبار ، ووعيت الآثار ، وحفظت الحكم النادرة والأمثال السائرة ، وعلمت فيما علمت ان من حماقة الناس ان يبخلوا بالمال ومن حقه ان ينفق في وجوهه بغير حساب ، وان يسرفوا في الصداقة ومن حقها ان يبخل بها اصحابها اشد البخل واعظمه واقساه ، لأن المال غادٍ ورائح يذهب عنهم اليوم وقد يعود اليهم غداً ، لان الصداقة ليس من طبيعتها الغدوّ والرواح ولا المجيء والذهاب ، وانما طبيعتها الثبات والاستقرار . فاذا رأيت من يبخل بالمال حين يجب انفاقه ، فاعلم انه احمق سفيه ، وامنحه من نفسك ازدراءها في غير هوادة ولا رفق . واذا رأيت من يسرف في الصداقة ويبذرها تبذيراً ، فاعلم انه شرير من اخوان الشياطين ، وامنحه من نفسك مقتها وغضبها في غير مهل ولا اناة . وارفع نفسك على كل حال

عن الاحتفال بمن يبخل بالمال ، والالتفات الى من يسرف في الصداقة ، وكلتهما جميعاً الى غرائزهما الجامحة وطبائعهما المنحرفة ، لا تقدر لهما قدراً ولا ترجُ لهما وقاراً ولا تحسب لهما حساباً ، ولا تكلف نفسك في سبيلهما حزناً ولا ألماً ولا عناء ، فهما أهون من ذلك وأقل شأناً .

*

اما بعد ، فقد تلقيت كتابك وانا انعم بحياة راضية لا لغو فيها ولا تأثيم ، قوامها القراءة ومعاشرة هؤلاء الاصدقاء الذين لا يملون ولا يثيرون في انفسنا الملل .. الذين يستجيبون لنا اذا دعوناهم ، ويمنحوننا الروح اذا استرحنا اليهم . لا يمنون ، ولا يتجنون ، ولا يتكلفون المعاذير ، ولا يتلمسون العلل ، وانما يستجيبون لنا هوناً حين ندعوهم ؛ وينأون عنا هوناً حين ننصرف عنهم ، لا يتعللون ولا يتعتبون ولا يتكذبون ولا يفسدون علينا الحياة بالمكر والكيد والرياء والنفاق ، يظهروننا على ذات نفوسهم في اصرح الصراحة واصدق الصدق وأوفى الوفاء .

اتعرفهم ؟ انهم اخوان الصفاء حقاً ، انهم جديرون بان نمنحهم ودنا في غير تحفظ ، ونخلص لهم حبنا في غير اقتصاد . فلن نجني من ذلك الا خيراً . انهم الكتب يا سيدي ! الكتب التي يكتبها الناس على اختلاف طبائعهم ، وتفاوت حظوظهم من نقاء القلوب ، وصفاء الطباع ، واعتدال الامزجة ، وطهارة الضمائر .

اليس عجيباً انك تقرأ الكتاب فتجد فيه غذاء قلبك، وعقلك وذوقك ، تجد هذا كله صفواً لا يكدره مكدر ولا يشوبه شائب ، فاذا بحثت عن كاتبه فعسى ان تعرف انه كان انكد الناس حياةً ، واكدرهم طبعاً ، واسوأهم مزاجاً . فاعجب للخير المحض يُستخلص من الشر المحض ، وللنقاء النقي يُستخلص من الدنس الدنس . صدقني اذا ضقتَ بالناس فتعزَّ عنهم بما يكتب الناس ، واحمد لهم بعد هذا كله انهم يسيئون كثيراً ولكنّ بينهم قوماً يحسنون كثيراً ، وأنهم يجرحون القلوب ولكن بينهم قوماً يأسون الجراح .

فاعرف لهم ذلك واغفر لمسيئهم شكراً لمحسنهم ، واقبلهم آخر الأمر على علاتهم ، واذكر دائماً قول ابي العلاء :

وهل يأبق الانسان من ملك ربه
فيخرج من أرض له وسماء ؟!

فهرست

	صفحة
رسالة الشكر والكفر .	٨
رسالة الامر والنهي	١٨
الوشاية والوشاة	٢٨
رسالة القصد والغرور	٣٥
رسالة إلى ...	٤٣
قلب مغلق	٥٥
من بعيد	٦٦
حرعى	٧٨
نفوس للبيع	٨٦
كما أنت	٩٥
مصر بين النعيم والجحيم	١٠٤
الحرية أولاً	١١٣
ويل الشجي من الخلي	١٢٣
لا و نعم	١٣٢
صحائح الأنباء	١٤٢
اخوان الصفاء	١٥١

X3
3

انتهى طبع هذا الكتاب على

مطبعة دار الكتب

بناية العازارية – بيروت

٥٢/١٢/١٠٧

NYU - BOBST
31142 01216 2601
PJ7864.A35 M5 1953
Mir'at al-